حسن عبد الله القرشي

فارس بني عبس

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر دار المعارف بمصر

فَارِسُ بَنِي عَبْسٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

جيلنا الحاضر فى أمسّ الحاجة إلى أن يستجلى شخصية عنترة على حقيقتها ، وأن يقف على صورته واضحة مجلوّة فى إطار لا غموض فيه ليقبس منها لمحات الفتوة ، ومخائل النجدة ، ومثل العزة ، ومفاخر العروبة ، وأسرار العصامية .

فإن وفقت إلى أن أقدم هذا النموذج البشرى الفذ بين طيات هذا الكتاب الوجيز إلى الجيل العربى الحاضر ، المكافح فى سبيل استعادة مجد قومه ، المناضل لتشييد عظمة أمته ، فذلك حسبى جزاء وقصاراى فخراً .

حسن عبد الله القرشى

الإهـــداء

سيدى الأستاذ الكبير محمد سرور الصبان

تحية وبعد :

فبيني وبينك صلة سداها الروح ، ولحمتها الفن ؛ ولهذا تراني أنأى بك عن ألقاب الرئاسة والوزارة والسلطة ، وأخاطبك مخاطبة الإنسان للإنسان ، وأحن إليك حنين الفنان إلى الفنان وأتعشقك عشق الأديب للأديب يتجاوب معه فنه ، ويرى فيه صورته ، ويسمع منه صوته !

وفى إحدى الجلسات الأدبية الممتعة معك سمعتك تتحدث عن « فارس بنى عبس » وأصغيت إليك وأنت تروى ببيانك الفصيح وحديثك العذب بعض أشعاره وأخباره ، وسرنى كثيراً أنك رغبت إلىّ أن أقوم بدراسة هذا الفارس المعلم ، وهذا الشاعر الفحل الذى كان مثلاً فى الشجاعة والشهامة ، والوفاء والتضحية ، والكرم والأدب ؛ وهى صفات تنازعه — أنت — إياها وقد عرفها فيك الجميع !

وهأنذا وقد فرغت من دراسة « عنترة » وتحليل شخصيته البارزة من زاوية الحقيقة والواقع والفن ، لا من زوايا التهويل والافتعال والصنعة ؛ أهدى إليك هذا الكتاب ، مؤملا أن أكون قد أديت به بعض واجبى نحو ما لك علىّ من فضل التوجيه ، وحسن الرعاية والتشجيع .

حسن عبد الله القرشى

تصدير

بقلم الأستاذ الكبير الدكتور عبد الوهاب عزام

١

فى أدب العرب إسلاميه وجاهليه صفحات فخار وفصول مجد . وفيه ضروب من الفروسية وفنون من الفتوة . وفيه ما يحفز النفوس إلى مكارم الأخلاق ويطمح بها إلى الدرجات العلى .

وهذا التراث المجيد والميراث الخالد فى حاجة إلى أدباء يجمعونه وينقدونه ويصنفونه ، وييسرونه للقراء ، ويقرّبونه إلى المتأدبين ويعرضونه على شباب العرب مثلاً عالياً فى الكرامة والإباء ، وقدوة حسنة فى المروءة والفتوة ، عليه ينشؤون وبه فى صروف الزمان يتمثلون ، وبأبطاله يقتدون وفرسانه يتقيّلون .

وأدبنا الجاهلى — وهو نبت الجزيرة نمته رياضها وسهولها ، ونسبته جبالها وأوديتها ، ورباه بردها وهجيرها ، وأرجحه نسيمها وصرصرها — لا يزال فى حاجة إلى أيد تجمعه وعقول تفقهه ، ونفوس تهش له وهمم ترتبه وتنشره . ولن يستقيم لنا درس آدابنا الأولى إلا بهذه الأعمال ، ولا يتيسر لنا الانتفاع بها إلا بهذه المساعى .

٢

وعنترة بن شداد فارس شاعر نظمت فروسيته آشعارَه وصدقت أشعارُه فروسيته ، وناهيك بشاعر ينطق لسانه عن سنانه ، وتتجلى مآثره فى بيانه ، ويضرب المثل العالى فى شجاعته وأخلاقه ، وفى شدته ولينه وفى قتاله ونسيبه . استمع إليه قائلا :

هلا سألت القوم يا ابنة مالك   إن كنت جاهلةً بما لم تعلمى
ينبئك من شهد الوقيعة أننى   أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم

فليت لنا فى عنترة أسوة فنحتمل المكاره ونعف عن المغانم ، حتى نكون كما وصف رسول الله صلوات الله عليه الأنصار فقال : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » . ما أحوجنا إلى هذه الأسوة وما أجدرنا أن نتأدب بهذا الأدب !

وليت المتغزلين من شعرائنا الذين يتقصفون خوراً ويسفون ذلاًّ ، ويهوون إلى كل حضيض من المخازى وهم يحسبون أنهم يشعرون — ليتهم يسمون لمحات إلى نسيب عنترة يخلط الثغور ببريق السيوف ويذكر الحبيب فى مآزق الهيجاء :

ولقد ذكرتك والسيوف نواهلٌ   منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددتُ تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

هكذا نريد أدبنا خلقاً قويًّا وعاطفة علية ، وتغزلا بوميض السيوف فى مواطن الحتوف :

أيها المطرب الحماسىّ مرحى   أشعلن اللحون تفديك نفسى
واجمع السيف والنسيب فقدماً   رام لثم السيوفَ شاعرُ عبس

* * *

اشفنى باللحون تنفث ناراً   إن فى النغمة الذليلة دائى
واجعل اللحن عزمة ومضاء   كصليل السيوف فى الهيجاء *

ذلكم لا ما تقذى به أسماعنا وقلوبنا من الغزل الذليل فى اللفظ العليل ، والمعنى الخامد فى اللحن الهامد ، وإلى الله المشتكى .

لقد ندّ القلم فرجع إلى عنترة .

---

* الأبيات من ديوان « المثانى » لكاتب السطور

٣

عنى السيد الأديب الأستاذ حسن عبد الله القرشى بالفارس العربى عنترة بن شداد وتوفر على توضيح سيرته ودرس شعره والتعريف بقبيلته وبيئته فكتب فصولا عناوينها .

١ ــ مقدمة :

العرب والجزيرة العربية
بنو عبس

٢ ــ سيرة عنترة :

عنترة فى سجل التاريخ
نشأته وبيئته وعشيرته
اسم عنترة وحليته
نسب عنترة
مدارج صباه ومطالع شبابه
حياته
ملامح وسمات شخصية
صور من بطولته فى حروبه وبعض أخباره
حرب داحس والغبراء
دفاعه عن اللون الأسود
المرأة فى سيرته

نهاية عنترة :

قصة عنترة كما ألفها القصّاص

٣ ـ شعر عنترة

أغراضه وأساليبه

معلقته وتحليلها

نماذج من فنه ومختارات من شعره

ما تواترت روايته من شعره

ما ورد من شعره فى بعض الكتب

لا أقول إنه بلغ الغاية فى هذه الفصول ، ولكنه قرّب الغاية إلى السائر ويسر له الطريق . وقد مضى يعالج موضوعه فى إعجاب وحماس فكان لأسلوبه من حماسة عنترة نصيب ، وكان بحماسته حافزاً القارئ إلى المشاركة فى الحماس والإعجاب .

٤

وقد أحسن المؤلف فى تمييزه بين شعر عنترة الذى رواه الثقات من المتقدمين وبين الشعر الذى نسب إليه دون سند فى كتب المتأخرين .

والحق أن درس سيرة عنترة وشعره كدرس سير كل الشعراء وأشعارهم هو الخطوة الأولى فى التعريف بالشاعر : سيرته وفنه .

ينبغى لمن يؤرخ للشاعر أن يبدأ بالتحقيق والنقد لمعرفة شعر الشاعر وتمييزه من شعر غيره وجمعه وترتيبه .

والنقد والتحقيق فى شعر عنترة أوجب منه فى شعر جمهرة الشعراء ، فقد نسب إلى هذا الشاعر شعر كثير لا تلائم ألفاظه وأساليبه الشعر الجاهلى الصحيح ، ولا تجانس شعر عنترة الذى أثره عنه ثقات الرواة وأثبته ثقات المؤلفين .

والذى يقيس ما جمعه مؤلف هذا الكتاب بعنوان ما تواترت روايته عن الأصمعى وغيره ، إلى ما أثبته بعنوان ما ورد فى بعض الكتب والدواوين ، يجد الفرق الذى يجده بين شعر جاهلى مطبوع وشعر إسلامى متأخر مصنوع .

وقد حفظنا صغاراً هذا الشعر السهل المنسوب إلى عنترة وطربنا له ، ثم رفضناه كباراً وعجبنا منه ؛ إذ رأيناه لا يشبه شعر الجاهلية فى ألفاظه ومعانيه وأساليبه ، ولا يقارب المأثور من شعر عنترة .

وقد بدأ المؤلف النقد والتمييز فى هذا الموضوع وعليه أن يكمل ما بدأه ، عليه أن يستقصى ما ينسب إلى عنترة من شعر فى مظانه ، ويميز جيده من زائفه وصادقه من كاذبه ، وليس هذا أمراً أمماً ، ولكنه لا يعجز الكاتب الناقد والباحث الدائب .

ورجاؤنا أن يضطرد بحث الأديب الفاضل السيد الأستاذ حسن عبد الله القرشى فى هذا الشأن ، حتى يزيل كل لبس ويوضح كل خفى ، ويميز الصحيح من السقيم .

٥

وبعد فالمؤلف مشكور كل الشكر على اختيار موضوعه ، وعلى معالجته على هذه الطريقة ، مرجو للمضى فى طريقه والاستزادة من بحثه .

وقد قال فى مقدمته « فإن وفقت إلى أن أقدم هذا النموذج البشرى الفذّ بين

طيات هذا الكتاب الوجيز ، إلى الجيل العربى الحاضر المكافح فى سبيل استعادة مجد قومه ، المناضل لتشييد عظمة أمته ، فذلك حسبى جزاء وقصاراى فخراً » .

وأنا أبشره بأنه قد وفق بدءاً والله نسأل أن يديم له التوفيق حتى يوفى على الغاية ويستولى على الأمد .

والله ولى التوفيق .

جدة ٣ ربيع الثانى ١٣٧٥ هـ   عبد الوهاب عزام

٢٩ تشرين الثانى ١٩٥٥ م

العرب والجزيرة العربية

تمهيد

العرب أمة ذات خصائص ومقومات وذات مجد وتاريخ . . ومنذ القديم كانت « شبه جزيرة العرب » مصدراً للخير ومراداً للحضارة ، بما توافر لها من رحابة المواطن ، وطبيعة السكان ، ومجالدتها للمصاعب ، وتغلبها على الأزمات والخطوب ، وحفاظها على التقاليد ، وسموّ آدابها ، وقوة أخلاقها ورفعة خصالها ؛ وأخذها من حضارات الأمم بنصيب لا يطغى على كيانها ، بل يعزز من بنيانها ، ويثبت من أركانها ، ويقوى بالغير وشائجها وصلاتها .

ومن طبيعة العرب سلامة الذوق ، ودقة الحس ، والتعلق بالفنون ، ورقة العاطفة ، وعظمة اللغة مهما تباينت اللهجات ؛ ويكفى لغة العرب مجداً أن تكون لغة القرآن الكريم أخلد كتاب منزل من رب العالمين جاء به خير الرسل أجمعين محمد النبي العربى صلى الله عليه وسلم .

شبه جزيرة العرب

سميت بلاد العرب منذ زمن الجاهلية بجزيرة العرب [1] وقد ذكر الهمدانى صاحب كتاب « صفة جزيرة العرب » : أنها « إنما سميت جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها » على نحو من تحديد مواقعها أشار إليه فى

---

(١) راجع « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » لمحمد الخضرى ص ٤ م الاستقامة .
وراجع كتاب «مهد العرب» للدكتور عبد الوهاب عزام ، العدد (٤٠) من سلسلة «اقرأ» ص ٢١ .

كتابه . وإن تكن بلاد العرب فى واقعها ما هى إلا شبه جزيرة لإحاطة المياه بها من أغلب جهاتها ، وتلك صفة شبه الجزيرة كما يحددها الجغرافيون .

وشبه الجزيرة العربية جيدة المناخ وليس بها غابات أو أنهار أو بحيرات ، وأغلب سقياها من مياه الأمطار التى تتهاطل غزيرة فى أكثر نواحيها ، والتى تسيل فى الأودية كمجار للسيول وتعقب غدراناً ، كما ينداح الماء فى باطن الأرض وقيعانها ، ومن ثم تنتج عنه العيون والآبار والرياض وهى مجتمع المياه فى مستكن من الأرض (١) .

العرب الحاضرة والبادية :

حفظ التاريخ لعرب الجنوب ثقافتهم المعروفة وحضارتهم وآثارهم فى مختلف حيواتهم ومعائشهم (٢) كما نوّه بها القرآن الكريم فى قوله تعالى : (لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتىْ أُكل خَمط وأثل وشىء من سدْر قليل) .

وأما البداة من العرب فى جاهليتهم فهم — وإن كانوا قد حرموا الحياة المدنية الرفهة التى أتيحت لإخوانهم عرب الجنوب — قد جبلوا على عادات وتقاليد كونت لهم لوناً معيناً من الحياة يتلاءم وحاجتهم لم يستطيعوا فكاكاً من ربقته ، كما أنه طبع معيشتهم بطبيعة الصحراء التى يعيشون فى أرباضها وأكنافها .

الحياة الروحية والاجتماعية والعقلية فى العصر الجاهلى :

عهد الجاهلية هو ذلك العصر الذى لم يكن لبلاد العرب فيه رسول موحى إليه ولا كتاب منزل ولا قوانين تضبط أوضاعهم الفردية والجماعية . وعلى وجه أخص

---

(١) راجع المصدر السابق : « مهد العرب » .

(٢) راجع كتاب « حضارة العرب » للدكتور غوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر ص ٥٥ وما بعدها — طبع عيسى الحلبى .

نستطيع أن نحدد عصر الجاهلية على مفهوم أقرب وألصق بالمؤثرات والعوامل ، التى صهرت بيئة العرب وشكلت أحوالهم الاجتماعية بأنه يشمل القرن السابق مباشرة لظهور الإسلام [١] .

« . . وكان أهل الجاهلية قبيل الإسلام يدّعون أنهم على دين إبراهيم الخليل وهو الدين الحنيف الذى دعاهم إسماعيل أبو العدنانية إليه ثم جاء النبي صلى الله عليه وسلم مجدداً له .

بيد أنهم كانوا بعيدين عن نواهى شريعة إبراهيم ومهملين ما أتت به من مكارم الأخلاق والدعوة التوحيدية الخالصة لوجه الله ، فكثرت معاصيهم واتخذوا وسطاء يتقربون بالزلفى إليه ، كما قال الله تعالى فى القرآن الكريم : (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) فانقلبوا عبدة أصنام ليس لهم من ديانة إبراهيم إلا بعض المراسم والمناسك مثل الحج والطواف ، والسعى والوقوف بعرفة أو بمزدلفة ورمى الجمار والنحر . . » [٢] .

وأشهر أصنام العرب — حيث كان لكل قبيلة صنم تتقرب به — اللات والعزى ومناة وهبل الأكبر وود وسواع ويغوث ويعوق ونسر . وانتشرت بعض الديانات كالنصرانية ، جاءت لبلاد العرب عن طريق الحبشة وطريق الرومان ، كاليهودية ، جاءت عن طريق مهاجرة اليهود إلى يثرب وشمال الحجاز . وقيل إنها أثرت تأثيراً واضحاً فى عصور ما قبل البعثة النبوية ، حتى إن أحد ملوك حمير تهوّد هو وأكثر أتباعه . وقد قال صاحب « صبح الأعشى » إن ما كانت عليه العرب فى الجاهلية قد يكون على وجه من ثلاثة وجوه : الأول ما يجرى مجرى الديانات ، والثانى ما يجرى مجرى الاصطلاحات والعادات ، والثالث ما يجرى مجرى الخرافات والأوهام . وقد أبطل الإسلام كل هذا وأشهره الكهانة والزجر والطيرة ، والميسر والقداح والأزلام ، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحامى وغير ذلك [٣] .

(١) راجع « تاريخ العرب » للدكتور فيليب حتى ترجمة محمد مبروك نافع ج ١ ص ١٠٢ — دار العالم العربى .

(٢) انظر كتاب « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد حمزة ص ٢٥٤ — المطبعة السلفية بمصر .

(٣) راجع توضيح هذه المسميات فى المصدر السابق ص ٢٥٦ .

والنظام القبلى كان الأصل فى المجتمع البدوى . . فكل خيمة تمثل أسرة والمعسكر المكون من عدة خيام يسمى حيا ، وأعضاء الحى الواحد يكونون عشيرة أو بطناً ، ومجموعة الأقوام القريبة النسب يكونون قبيلة ، ويعد أفراد القوم الواحد أنفسهم أبناء دم واحد يخضعون لرئيس واحد هو أسن أعضاء القوم وأبرزهم من أكبر بيوتهم .

والخيمة وما فيها من متاع تعتبر ملك الفرد . وأما الماء والمرعى والأرض الزراعية فهى ملك مشاع للقبيلة ، والغزو هو محور نشاط فرسان القبائل ومراد معيشتها .

وقد يعتبر الغزو من اللصوصية وانتهاك الحرمات ولكنه كان فى ذلك العصر ضرورة اجتماعية ، بل إنه قد يرتقى إلى مستوى النظام القومى . ومن قواعد الغزو أنه كان لا يراق فيه دم إلا فى حالة الضرورة القصوى ، وكان العرف القائم أن الدم لا يغسله إلا الدم ، وفى بعض الأحيان كانت تقبل الديات ولذلك مرتبات معينة. فإذا اقترف أحد الأفراد جريمة القتل فى داخل حدود قومه لم يجد من يحميه فإذا فرّ عد طريداً أوخارجاً على القانون ، وإذا ارتكب جريمة القتل خارج القوم أقيم الثأر وأصبح كل فرد من أعضاء القوم معرضاً لأن يثأر منه وأن تكون حياته فداء المقتول ، وقد يستمر طلب الدم أربعين سنة كما حدث فى حرب البسوس بين بنى بكر وبنى تغلب ، ثم فى حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، إلى غير ذلك من القواعد والتقاليد المتعارف عليها والمتبعة سلطاناً سائداً وقانوناً صارماً فى الجاهلية ؛ سلطان القوة القاهرة المستندة على القوى البدنية وقوى التعصب القبلى (١) وأن أمة من الأمم لم تتوافر لديها أسباب التطاحن والعراك وبواعث النضال والاشتباك كما توافرت لدى أمة العرب فى جاهليتها ، فإذا أمحلت القبيلة فى موطن انتجعت موطناً آخر وانتزعته من غيرها انتزاعاً بأسنة الرماح وشفار السيوف ، كما

---

(١) راجع « تاريخ العرب » للدكتور فيليب حتى ترجمة محمد مبروك نافع ص ٢٨ و ٣٠ و ٣٣ وراجع « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد حمزة ص ٢٥٥ .

يكفي أن تكون غارة بين قبيلتين سبباً لتأريث حرب طاحنة بين عديد من القبائل والبطون العربية [١].

وقد كان يخفف من حدة هذه الحياة وصرامتها الرهبة والوجل من بعض العادات والتقاليد المشتركة بين الخرافة والدين [٢].

ومن عادات العرب فى الحروب أنهم كانوا يسيرون ليلا ليداهموا خصمهم ويشلوا حركته ويوقعوا الفوضى والاضطراب بين صفوفه ، فتنحل عزيمته ويركن إلى الفرار وترك غنائمه وذخائره ، فيستولون عليها ويتمتعون بنفائسها ، وربما ساروا إلى عدوهم سحراً ليصبحوه الغارة المبكرة التى لا تبقى ولا تذر [٣].

ومن ثم كانت عنايتهم بآلات الحرب من سيوف ورماح ودروع وخوذات وأقواس ونبال ، وعنايتهم بالخيل والجمال والبغال . كما حبب الحرب إلى نفوسهم طبائع الشجاعة والنجدة والبأس والقوة المذخورة فيها ، وهى صفات حميدة ما فى ذلك من ريب تتنافى وصفات الخور والضعف والجبن والهلع .

ومن مظاهر حب القوة والغلبة فى تاريخ العرب ما أطلق على القبائل من أسماء كأسماء الحيوان ، مثل أسد وفهد ونمر وذئب ، ومن غير الحيوان مثل حجر وجشم وعبس [٤] ، وما سموا به أبناءهم من أسماء مثل كليب وبغيض وصفوان ، والقعقاع ، والمهلهل ، وسويد ، وتأبط شرا ، وحنظلة ، وخداش ، وظالم ، وضبة ، وهبار ترجيحاً لمسميات هذه الصفات التى تحمل طابع الصلابة وسمة الصولة والفتوّة . ومن طبيعة العرب أنهم كانوا لا يسفكون دماء الجواسيس بل يطلقون سراحهم إمعاناً فى تحدى خصومهم ، ولكى يشعروهم قوتهم وغلبتهم بما يتحدث به هؤلاء الجواسيس من مدى منعتهم وجبروتهم [٥] .

---

(١) راجع « تاريخ الأدب العربى » للأستاذ السباعى بيومى ج ١ ص ٢٥ نشر مكتبة النهضة المصرية .

(٢) راجع « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد حمزة ص ٢٥٥ .

(٣) راجع « تاريخ الأدب العربى » للأستاذ السباعى بيومى ج ١ ص ٤٣ .

(٤) راجع المصدر ص ٤٢ و ٤٤ و ٤٥ .

(٥) راجع كتاب « الفتوة عند العرب » للأستاذ عمر الدسوقى ص ٥٥ م لجنة البيان العربى .

ومن عادات الاجتماع عندهم حضور مواسم معينة فى أوقات معلومة وأماكن معروفة ، وأهم أسواقهم التى تقام هى دُومة ، الجندل ، وذو المجاز ، والمجنة ، وعكاظ . ويذكر أن من تقاليدهم أيضاً عدم التقيد بحد محدود فى الزواج والتبنى والتسرى (١) .

ومن المؤثرات فى حياتهم حبهم لاكتساب المفاخر وحسن الذكر واقتناص الثأر واجتناب العار والعوز ، والرغبة فى السؤدد والكرم والزعامة والوفاء .

وفى غمرة اصطلائهم نيران الحروب وغشيانهم معمعان الوغى يتفجر من نفوسهم شعر الحماسة بليغاً هدّاراً ، وتتجاوب مع أصدائه ألحان الفخر وملاحم النصر ، وتفيد اللغة من وراء ذلك أعظم الفائدة كى يفيد الأدب أحسن الجدوى وبما تزخر به تلك الأشعار من معانى رائعة وألفاظ جزلة ، وبما تخلفه من ميراث ضخم يزيد من رصيد لغة العرب .

الوضع السياسى :

إزاء كل هذه التيارات والأوضاع السائدة ، وفى غمرة هذه العوامل والمعتقدات التى سربلت حياة العرب فى ذلك العصر ، لم يكن من الميسور أن يتكون لهذه الجماعات المتفرقة المتناثرة كيان سياسى محدد المعالم والأهداف ، يؤثر فيها تأثيراً قويا واضحاً .

وقد جاورت العرب حكومات ثلاث ذات قوى وقهر وتسلط ، هى حكومة الروم وسلطانها فى الشام ومشارفه ، وحكومة الفرس ومنطقة نفوذها العراق وما جاورها . وحكومة الأحباش ودائرة نفوذها اليمن ونواحيه .

وتقاذفت عرب الجزيرة الأهواء فهم يدخلون مرة فى أهل العراق وتارة مع أهل الشام ، حيث كانت الجزيرة خلواً من ملك يفرض عليها السلطان ويدعم من كيانها ويجمع شتاتها ، وذلك للنزاع القبلى والتباين العنصرى وحب الظهور

(١) راجع « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد حمزة ص ٢٥٧ .

والبروز الغريزى ، على أنه قد كانت عند بعض القبائل فى الحجاز حكومة صغيرة هى حكومة « قريش » ومهمتها حماية الحرم والمحافظة على أصنام العرب وأوثانهم ، وتيسير الحج ورعاية البيت ، إلا أنها لم تكن بذات مظهر قوى يمكن لها فى نفوس الجميع ؛ حيث ظهر ضعفها حين قصد الأحباش غزو مكة ، وإن تكن هذه الحادثة الكبرى قد أثرت تأثيراً واضحاً فى الشعور السياسى ، حيث اجتمع العرب من جميع الجهات وشتى الأقطار كى يصدوا غزو أبرهة الحبشى للحرم ، ودانوا بالزعامة لشيخ قريش المسيطر على الحرم لرد عادية ذلك الصائل المعتدى ، ولكن رب البيت قد تكفل بحماية بيته وأرسل على الغازين طيراً أبابيل (ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول) .

والسلطة عند حكومة القرشيين بمكة كانت مزيجاً من زعامة الدين والصدارة الدنيوية ، وقد حكمت فى الحرم وما حوله بصفتها مشرفة على الحجيج ومنفذة لحكم شريعة إبراهيم ، وبحكم كونها صاحبة سدانة البيت . وقد كانت سدانة الكعبة يتولاها حى من أحياء قريش هم بنو عبد الدار ، وكانت هنالك دار الندوة وهى مكان التشاور والاجتماع والفصل فى بعض القضايا ، فهى برلمانهم ومجلس شوراهم .

وفيما عدا حكومة الحجاز الشبيهة بالرمزية هذه لم يكن للعرب من مرجع يلجؤون إليه فى حل منازعاتهم ومشكلاتهم ، مما جعلهم عرضة للتفكك والانقسام والخلافات العصبية ، حتى قيض الله للعرب والمسلمين بعثة رسوله النبى الأمى الكريم صلى الله عليه وسلم (١) .

هذه لمحة عن العرب فى العصر الجاهلى وصورة مصغرة عن حالتهم تلك الحقبة التى كونت بيئة قبيلة عبس .

---

(١) انظر « قلب جزيرة العرب » للأستاذ فؤاد حمزة ص ٢٥٧ و ٢٥٨ و ٢٥٩ .

بنو عبس (١)

نسبهم – تاريخهم بعض مشاهيرهم – بلادهم ومنازلهم – بقيتهم .

نسب عبس وتاريخهم :

عبس هي القبيلة العريقة التي نجلت عنترة وأنجبته وهذا ما يدعونا فى هذا الكتاب إلى إيراد نسبها وتحقيق منازلها وتاريخها قديماً وحديثاً .

ينبئنا التاريخ أن قيس عيلان هو الأصل الثانى من أصلى مضر العظيمين . (إلياس بن مضر وبنوه يعرفون ببنى خندف ومنهم كنانة وتميم ومزينة وهذيل وغيرهم . والناس بن مضر ويعرفون بقيس عيلان) ومن هؤلاء غطفان بن سعد بن

---

(١) راجع « مختصر جمهرة النسب » – نسخة معهد المخطوط فى الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية – المصورة عن نسخة راغب باشا ش – ١٢٦ و١٢٧ و١٢٨ و١٢٩ و١٣٠ و١٣١ .

« جمهرة أنساب العرب » لابن حزم – نشر دار المعارف ص ٢٣٩ و ٢٤٠ .

« المقتضب من جمهرة النسب » لياقوت – نسخة دار الكتب المخطوطة فى عهد المؤلف ورقة ٤٨ .

« معجم قبائل العرب » لعمر رضا كحالة ج ٢ ص ٧٣٨ .

« العبر وديوان المبتدأ والخبر » لابن خلدون ج ٢ ص ٣٠٦ .

« معجم ما استعجم » للبكرى ص ١١٧٨ – الطبعة الثانية .

« معجم البلدان » لياقوت الطبعة الأوربية لاحتوائها على فهرس بأسماء القبائل .

« بلاد العرب » للحسن بن عبد الله الأصبهانى المعروف بلغدة – مخطوط – ص ١٠ نسخة الأستاذ حمد الجاسر .

« نهاية الأرب » للنويرى ج ٢ ص ٣٢٣ و ٣٢٤ .

« الرحلة الحجازية » للبتانونى – الطبعة الثانية .

« اللباب فى الأنساب » للأشعرى – مخطوط – نسخة الأستاذ حمد الجاسر .

« طرفة الأصحاب » لعمر بن يوسف بن رسول ص ١٦ ومواضع أخرى .

« اليمامة » – ج السنة الثانية – بحث للأستاذ حمد الجاسر .

« طبقات ابن سعد » « وسيرة ابن هشام » .

« المعارف » لابن قتيبة ص ٣٦ و٣٧

« صبح الأعشى » ج ١ ص ٣٤٤ المطبعة الأميرية .

« قلب جزيرة العرب » لفؤاد حمزة ص ١٨٤ و ١٨٥ – المطبعة السلفية .

قيس عيلان ، وهى قبيلة لها شهرة كبيرة عند ظهور الإسلام ، وقد انحازت إلى قريش فى حروبها مع النبى صلى الله عليه وسلم [١] .

وكانت ديار هذه القبيلة مجاورة للمدينة « يثْرب » فى الجهة الشرقية الشمالية فى الحرار والأودية الواقعة فيما بين المدينة وبين فدَك (وتعرف فى عهدنا باسم الحائط والحويط) وخيبر منساحة إلى الشرق على ضفاف وادى « الرّمة » الذى ينحدر من المرتفعات الواقعة شرقى المدينة وشماليها — ومنتشرة على روافد هذا الوادى من الأودية التى تأتيه من الشمال ومن الغرب .

ومن فروع غطفان : بنو عبد الله ولا يزالون يعرفون باسمهم هذا ويحلون قرب منازلهم القديمة ، غير أنهم ينتسبون الآن لقبيلة « مطير » حيث زال الاسم القديم « غطفان » .

وبنو ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان — ومنهم الشاعر النابغة الذبيانى ، وبقيتهم انحازت إلى بنى ذبيان من جهينة فدخلت فيهم .

وبنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان [٢] إخوة بنى ذبيان .

بعض مشاهيرهم :

من مشاهير قبيلة عبس زهير بن جذيمة بن رواحة بن ربيعة بن مازن الحارث ابن قطيعة بن عبس ، الذى لم تقتصر سيادته على عبس بل شملت غطفان كلها ، وابنه قيس بن زهير صاحب حرب داحس والغبراء ، والربيع ، بن زياد وإخوته الذين يقال لهم الكملة لاكتمال صفاتهم ، وعروة بن الورد الشاعر ، ومروان بن زنباع . ولزهير بن جذيمة أيضاً إخوة نبلاء عرفوا بالشجاعة وعلو الصيت ، ومساور ابن هند بن قيس بن زهير الشاعر [٣] . ومنهم عنترة وسيأتى الحديث عن نسبه

(١) انظر « طبقات ابن سعد » : غزوة الأحزاب ج ٣ ص ١٠٨ — الطبعة المصرية — « وسيرة ابن هشام » : غزوة الأحزاب .

(٢) راجع « الأغانى » ج ٨ ص ٢٣٧ .

(٣) راجع « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص .

فيما بعد ، والحطيئة وهو جرول بن أوس بن مالك بن جوية بن مخزوم ، ومنهم خالد بن سنان بن غيث بن مريطة بن مخزوم الذى قال فيه النبى صلى الله عليه وسلم « نبىّ ضيعه قومه » (١) . ومنهم فى صدر الإسلام قرة بن حصين بن فضالة ابن الحارث بن زُهير بعثه النبى صلى الله عليه وسلم داعياً للإسلام إلى بنى هلال ابن عامر فقتلوه ، ومنهم حذيفة بن اليمان الصحابىّ الجليل . ومن منجبات نسائهم : ولادة بنت العباس بن جزء بن الحارث بن زهير ، أم الوليد وسليمان ابنى عبد الملك بن مروان .

ديار عبس ومنازلهم :

كانت ديار بنى عبس فى بلاد قبيلتهم « غطفان » ، إلا أن الحروب التى حدثت بين فروع هذه القبيلة وأشدها « حرب داحس والغبراء » دفعتهم إلى النقلة عن مواطنهم القديمة دفعاً ، وهى كما يحددها البكرى فى معجم ما استعجم بين أبانين والنقرة وماوان والربذة (٢) .

أما هذه المواقع حديثاً فتفصيلها ، أن « أبانين » جبلان فى غربىّ القصيم يسمى أحدهما « أبان الأسود » والثانى « أبان الأبيض » ، ولا يزالان يعرفان باسميهما فى هذا العهد ، وأما « النقرة » فمنهل من مناهل المتوجه من شمال نجد إلى المدينة ، وتبعد عن المدينة فى الجهة الشرقية مسيرة ثلاثة أيام للإبل .

وأما « ماوان » فماء فى واد يعرف بهذا الاسم بقرب ماءة النقرة التى كثيراً ما تضاف إليه . ثم انساحوا مشرقين حتى استقروا فى « القصيم » تاركين أبانين الجبلين الواقعين فى شرق بلادهم القديمة غرباً — يفصل بينهم وبين بلاد قومهم — بنو أسد .

---

(١) انظر « طبقات ابن سعد » ج ٢ ص ٦٢ .

(٢) راجع « معجم ما استعجم » للبكرى ص ١١٧٨ الطبعة الثانية .

قال الحسن بن عبد الله الأصبهانى المعروف بلغدة فى كتاب بلاد العرب[١] : وفوق ذلك أبان الأبيض لعبس وأبان الأسود لبنى أسد ، وبه عين أجراها محمد ابن عبد الملك بن حبيب الفقعسى . وأسفل من أبان الأسود غير بعيد هضبة يقال لها « محَياة » لبنى أسد[٢] ، والرمةُ واد يمر بين أبانين يستقبل مطلع الشمس ويجىء من المغرب وهو أكبر واد معروف بنجد ، وأسافل الرّمة ، ينتهى إلى القصيم رمل لبنى عبس ، وفيما بين الرمة من وسطها فوق أبانين وبين الشمال أكمة يقال لها الخيمة ؛ بها ماءة يقال لها الغبارة لبنى عبس ، وببطن الرّمة حذاء أكمة الخيمة ماء يقال لها الظهران وقرية يقال لها الفوارة بجنب الظهران[٣] بها نخيل كثير وعيون للسلطان وحذاؤها ماءة يقال له المقنعة لبنى حشر من عبس ، وفيما بين الفوارة والمغرب جبل يقال له المشحاذ والجثوم وذو فرقين وصُحير وتياسان — علمان كلاهما يسمى تياسا — وهذا كله فى خط بنى عبس ، وأسفل من ذلك فيما يلى المشرق الجرير واد لبنى أسد به ماءة يقال لها الجريرة يفرّغ فى ثادق ، وثادق واد ضخم يصبّ فى الرمة أعاليه لبنى أسد وأسفله لبنى عبس وهو الذى ذكره عقبة بن سوداء فقال :

ألا يا لقومى للهموم الطوارق … وربع خلا بين السليل فثادق
وطير جرت بين الغميم وجيجرى … بصدع النوى والبين غير مفارق

والغميم واد ، وجيجرى ماءة فى واد يقال له ذو جيجرى لعبس وهى فيما بين قطن الشمال وبين جيجرى .

وعند ما نتتبع معجمات الأمكنة لنبحث عن حدود ديار عبس نجد أن منها :
فى الجنوب « امرة » وهى المنزل الثالث للحجاج فى العهد القديم ، من عنيزة حينما يتوجهون إلى مكة ، كما نجد البكرى حينما يحدد حمىَ ضرّية يذكر أنه دخل

(١) « بلاد العرب » للغدة مخطوط ص ١٠ نسخة الأستاذ حمد الجاسر .
(٢) ولا تزال معروفة باسمها الآن .
(٣) راجع « معجم ما استعجم » والبكرى ص ٨٦٤ .

فيه من شق بنى عبس ستة أمواه ، ونجد من جبال هذه القبيلة فى الجهة الغربية من ديارها جبل قطن الذى يقول فيه أحد الرجاز :

أين انتهى بى يا ابن صمعاء السنن ليس لعبس جبل غير قطن

وجبل أبان الأبيض .

ومن الناحية الشمالية ، وادى (أثال) ويشاركهم فيه أناس من بنى أسد و « ضلفع » .

ومن الشرق تمتد ديارهم إلى رمل زرود المتصل برمل عالج « من الدهناء » .

ومن ناحية الجنوب تقرب من إقليم السر .

وعلى هذا فديارهم تحد :

غرباً بجبلى أبانين وجبل قطن ويدخل هذا فيها .

ومن الشمال بأطراف القصيم الشمالية .

ومن الشرق بالرمال الواقعة شرق القصيم .

ومن الجنوب بإقليم السر .

ومن الجنوب الغربى « بإمرة » و « كير » وحدود « حمى ضرية » .

وإذن فمنازلهم هى ديار القصيم ونواحيه يجاورهم شمالاً وغرباً بنو أسد وشرقاً بنو تميم وجنوباً بعض قبائل قيس عيلان من غنى وبنى عامر وغيرهم : قال زيد الخيل الطائى :

ونحن الجالبون سبـــاء عبس إلى الجبلين من أرض القصيم[1]

ولا شك أن من الإشكال واللبس الذى يعترض الباحث حينما يحاول تحديد منازل بنى عبس ، أنه يجد فى شعر عنترة أسماء مواضع كثيرة ومتعددة خارجة عن هذا التحديد ، فيجد فيه « الشربة » بالشين المفتوحة المشددة بعدها راء مفتوحة

---

(١) ويقصد بالجبلين هنا جبلى أجا وسلمى ويقصد الشاعر بهذا يوم القصيم لطى على بنى عبس .

مهملة فباء موحدة تحتية مشددة فتاء التأنيث ، وهذه هى الأرض الواقعة بين وادى الجريب والرمة. والجريب[١] ينحدر من غرب نجد وجنوبه متجهاً صوب الشمال الشرقى حتى يصب فى وادى الرمة فوق بلاد القصيم ، وهذا فى الحقيقة قرب بلاد بنى عبس التى حاولنا تحقيقها وتحديدها ، وليس ببعيد أن تكون من منازلهم قبل انحدارهم إلى القصيم حينما كانوا مخالطين لقبيلتهم غطفان ومجاورين لها ، ولكن هناك مواضع أخرى كثيرة بعيدة جداً عن هذه الجهات ، ويزيل هذا الإشكال أمور ثلاثة هى :

أولاً : أن شعر عنترة — كغيره من شعراء الجاهليين — دخله كثير من الشعر المصنوع ، ولهذا فلا يمكن الجزم بأن كل المواضع المذكورة فيه هى من بلاد بنى عبس .

ثانياً : أن الشاعر كثيراً ما يورد فى شعره أسماء مواضع بعيدة عن بلاده ، بل كثيراً ما جمع بين موضعين أحدهما فى الشرق والآخر فى الغرب فى بيت واحد كـ « الدخول وحومل » فى قول امرئ القيس : فالدخول فى جنوب نجد هضاب كبيرة معروفة فى طريق المتوجه إلى وادى الدواسر ، وحومل كثبان من رمل متراكم تعرف الآن باسم « بنات حومل » مطلة على توضح الروضة الواقعة فى طرف السهبا شرق الخرج ، وتلك الكثبان من الناحية الشرقية الشمالية عن توضح المعروفة الآن باسم « التوضحية » .

ثالثاً : أن بعض تلك المواضع قريبة من منازل بنى عبس فى العهد القديم ، ومؤلفو معجمات الأمكنة يخبطون خبطاً حينما يريدون تحديد منازل القبائل ، لأنهم غالباً ما يعولون على كلام الشعراء ، فإذا رأوا اسم موضع ورد فى شعر شاعر نسبوا ذلك الموضع إلى قبيلة ذلك الشاعر ، كما أنهم فى حالة تحديدهم للمنازل العربية القديمة لا يلاحظون تحول القبائل وتنقلها من موضع لآخر ، فتجدهم مثلا يعدّون من منازل عبس مواضع فى الحجاز ويعدون من منازلهم أمكنة أخرى فى شرق

---

(١) الجريب — يعرف فى عهدنا الحاضر باسم الجرير وأعلاه وادى المياه .

نجد ، فيقع الباحث بهذا فى بيداء لا طرف لها ولا صُوًى يهتدى بها حينما يعوزه البحث .

بقية عبس :

لقد بقى علينا أن نذكر شيئاً عن بقية هذه القبيلة التى كانت تعد فى العهد الجاهلىّ من « جمرات العرب » (١) فانطفأت .

يرى العلامة ابن خلدون فى تاريخه (٢) أن بنى عبس انتقلوا من نجد ولم يبق فيه منهم أحد ، وهذا وهم منه رحمه الله ، فكثيراً ما يقول فى تاريخه عن كثير من القبائل بأنها انتقلت إلى المغرب ولم يبق منها أحد فى بلادها القديمة كما قال عن « عدوان » و « باهلة » وغيرهما ، والصحيح أن القبائل العربية تداخلت وامتزج بعضها ببعض وانضم كثير منها إلى من يجاورها من القبائل أو يماثلها فى الاسم ، (٣) وزالت العصبية القبلية من كثير منها بسبب ضعفها وسيطرة قبائل أخرى أقوى منها عليها ، وكل هذا يصدق على قبيلة بنى عبس ، فقد انضم قسم منها إلى قبيلة جهينة فاندمج فيها ، وبقى قسم فى منازله القديمة غير محتفظ بمميزاته القبلية القديمة لضعفه ، وفى بلدان القصيم أناس من بقايا عبس ، كما أن فى أطرافه الغربية فى « الحجناوى » ، وفى أبانين أناس يدعون هتيماً هم فى الغالب من بقية بنى عبس .

وقد ذكر البتانونى المصرى (٤) أن قبيلة عبس كانت إلى القرن الثامن الهجرى قوية ، فاعتدت على جاراتها فنقم العرب عليها وأوقعوا بها وشتت شملها ، ثم ضعف أمرها وذكرها باسم هتيم ، ولا أدرى من أين أتى بهذا إلا أن له وجهاً من الصحة : فهتيم تحل جانباً من بلاد عبس فى الحاضر ، وهى وإن كان العرب ينظرون

---

(١) راجع « تاج العروس ، شرح القاموس » ج ٣ ص ٧٠٧ – « المحبر » لمحمد بن حبيب ص ٢٣٤ .

(٢) راجع « العبر وديوان المبتدأ والخبر » لابن خلدون ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٣) انظر «صفة جزيرة العرب» ص ٩٠ الطبعة اوربية .

(٤) « الرحلة الحجازية » ص ٥١ .

إليها نظرة ازدراء واحتقار إلا أن لها من الصفات والأخلاق الكريمة ما ينظمها فى عداد القبائل العربية العريقة فى الحسب ، وينبغى أن يلاحظ أن ليس لكل من انتسب إلى هتيم هذه الصفات ، فإن هذا الاسم يطلق على كل وضيع من الناس كما قال ابن المقرب الأحسائى (من أهل القرن السابع الهجرى) :

فإن هتيماً لو حوت ما لهاشم هتيم فلا يغررك طيف خيال
سترجع فيما عودت من حميرها وتحريق (أشنان) وخصف نعال

إلا أن هؤلاء الذين يحلون منازل عبس وتمتد ديارهم إلى الحرار الشرقية من الحجاز بقرب الحائط والحويط وخيبر ، ذوو شرف وكرم وشجاعة وصفات عربية أصيلة امتازوا بها عن هتيم الآخرين .

وفى قبيلة جهينة فخذ ينسب إلى عبس ، كما أن فى جازان ونواحيه قبيلة كبيرة تسمى بهذا الاسم ، إلا أنها ليست من عدنان بل هى قحطانية النسب ثم من خولان . وليس من المستبعد أن بقايا من عبس انضمت إلى جهينة ، كما انضم إخوتهم ذبيان إليها ، أو إلى عبس الخولانية ، وتوافق الأسماء يسبب التداخل بين القبائل ، ولهذا أمثلة كثيرة ليس هذا محل إيرادها . كما أن لعبس تاريخاً جاهلياً يجد الباحث طرفاً صالحاً منه فى « أيام العرب » ، أورده النويرى وابن الأثير وابن عبد ربه ومؤلف الأغانى أبو الفرج الأصبهانى ، وقد أتينا على ذكر شىء من ذلك فى معرض الكلام عن حرب داحس والغبراء التى نشبت بين عبس وذبيان .

ولعبس كذلك تاريخ إسلامى [١] ، ولكثير من أفرادها أخبار فى الفتوحات الإسلامية فى العهدين الأموى والعباسى مدونة فى التواريخ المطولة ، وهذا يحمل على القول بأن قبيلة عبس قبيلة معرقة ذات تاريخ مجيد .

---

(١) راجع خبر وفادة بنى عبس على الرسول صلى الله عليه وسلم فى « طبقات ابن سعد » ج ٢ ص ٦١ المطبعة المصرية – وفى « كتاب عيون الأثر » لابن سيد الناس ج ٢ ص ٢٥٧ .
وقد أورد الأستاذ فؤاد حمزة فى كتابه « قلب جزيرة العرب » ص ١٨٥ : أن من أفخاذ وعشائر عبس « مطولة ، ومناصير الغريرة ، وكفراً ورنف ، وشعار ، وخرازة ، وقطعبة ، وبطارية وموانع » .

عنترة فى سجل التاريخ

« من هو عنترة ؟ » :

لقد شهد تاريخ العرب أروع صور الفروسية ، وأصدق مثل العزة والشجاعة والكرامة ، وأخلد ملاحم البطولة والتضحية والشهامة ، سواء كان ذلك فى عهود جاهلية العرب أم بعد بزوغ فجر الإسلام .

وعنترة الذى نتحدث عنه — فى هذا الكتاب — مثل صادق من أمثلة الفتوة العربية فى عهد ما قبل الإسلام ، وعلم شامخ من أعلام القوة والنضال والجلد عند استعار وطيس الوغى واشتعال نار القتال .

قرْمٌ عارم وبطل قاحم تنفست عنه أرباض نجد فإذا لاسمه فى العرب دوى دونه هزيم الرعد ، وإذا لذكره طنين يغمر كل الآذان ويصيخ له سمع الزمان !

هل حمى الذمار وصان حوزة الديار مثل عنترة ؟

وهل صابر الهيجاء والقيظ جمرة ، وصاول القساورة الأشاوس مثل عنترة الفوارس ؟

وهل ورد المعامع وعف عن المغانم والمنافع مثل أبى المغلس (١) ؟

وهل أدار رحى الوغى وشن الغارات وارتخص فى سبيل مجده النفس مثل فتى عبس ؟

وهل صدح بشعر العرب الحماسى فملأ به صناجة الزمان مثل عنترة الهيجاء ؟

لقد كانت حياة أسد البيداء ، وقاهر الصحراء ، سلسلة انتصارات رائعة

(١) كنية لعنترة وله كنيتان أيضاً هما أبو المعايش وأبو أوفى ذكر أولاهما المستشرق ارنولد Arnold والأخرى المستشرق منيل Menil

سطرت أمجاده فى التاريخ ، بحروف متألقة ، وجعلته أسطورة من الأساطير تتحدث عنها الأجيال وتفاخر بها القرون !

وإنه ليكفى عنترة فخراً وشرفاً ما حكى من أن أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال : حدثنا عمر بن شبة قال، حدثنا ابن عائشة قال ، أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظلــه   حتى أنال به كريم المـــأكل

فقال : ما وصف لى أعرابىّ قط فأحببت أن أراه إلا عنترة [١] .

كما أنه لا مراء مطلقاً فى أن عنترة كان أشهر فرسان العرب فى الجاهلية ، وأبعدهم صيتاً وأسيرهم ذكراً ، كما كان من أحسن العرب شيمة ومن أعزهم نفساً [٢] وأجودهم بما ملكت يده [٣] وأوفاهم بالعهد وأنجزهم للوعد !

نشأته و بيئته وعشيرته :

نشأ عنترة نشأة العربىّ الأبى فى صحراء نجد ، بعيداً عن ترف المدنية وصخب الحضارة ، كما ينشأ سائر قومه « بنى عبس » ، وقد أكسبته بيئته الصحراوية بساطتها وصراحتها ، وعجمت عوده على الصبر والجلد وشدة البأس وقوة المراس . تلك بيئته لها طبيعة الصحراء وسحرها وامتدادها ، ولها قيظها وقرها ، كما أن لها كنفها الموطأ . فالصحراء إلى جانب صلابتها وعنفها ووعورتها لها رقة أنسامها اللطاف وإشراقها وبشرها . إنها دنيا تسبح فيها أخيلة الشعراء ، وتلتقى أفكارهم فى

(١) راجع مقدمة الديوان . « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤٣ ط دار الكتب - « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٧٩٧ - « بلوغ الأرب » للألوسى ج ص ١١٧ - المطبعة الرحمانية لباب الآداب ص ٢١٧ تحقيق أحمد شاكر .

(٢) « الأعلام » ج ٢ ص ٧٤٤ .

(٣) « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٥ - « المجانى الأدبية » عن مجانى الأب لويس شيخو لفؤاد البستانى ج ١ ص ١٥١ .

مسارحها صافية أنيقة ، لأنها عالم صيغ من الصفاء والنقاء ، وخلص من التعقيد والتكلف ، عالم بكر تستحم فيه الأنجم الزهر وتنعكس عليه أشعة القمر وديعة حلوة تبادله الأمنيات ، فإذا صافحته الشمس بحرارتها ويقظتها التمعت ذراته وتألقت جنباته وحلا المقام به فى مخيم جميل ، وساكنو الصحراء قوم خاصوا الحياة حرة باسمة لا تعرف من أوضار المدنية شيئاً ، فهم ببساطتهم وبعدهم عن التكلف والتظرف صرحاء بالطبيعة طلقاء بالفطرة ، ذوو نجدة وكرامة وذوو عزة وأنفة، يحمون الجار ويحفظون الذمار ، وإذا دارت الحرب هتفوا لها : البدار [١] .

ولم تخل نشأة عنترة من العقد النفسية ، فقد نجله أبٌ من أشراف القوم وأعلاهم نسباً ، ولكن هجنته جاءته من ناحية أمه الأَمة ، ولم يكن ابن الأمة بالذى يلحق بنسب أبيه إن لم يبرز تبريزاً واضحاً فى نواح من حياته ، تشهد بعظمة شخصيته وأحقيته للشرف الرفيع ، وإلا ظل عبداً لا فرق بينه وبين باقى العبيد الذين يقتنون بالمال [٢] .

اسم عنترة :

بعض من الناس يسمون (عنترة) عنتراً وربما أغراهم بذلك قوله :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها   قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

وقوله :

يـــدعون عنتر والرماح كأنهـــا   أشطان بئر فى لبان الأدهم

وقد شرح التبريزى هذا البيت بقوله : « ويروى عنتر — أى بالضم — فمن رواه بفتح الراء فإنه رخم عنترة وترك ما قبل المحذوف على حاله مفتوحاً ، ومن

(١) انظر كتاب « بين البحر والصحراء » العدد ٤٩ من سلسلة « اقرأ » ففيه تصوير شائق ومشاهد للصحراء فى حس العرب وفى خيال العربى .

(٢) « شعراء النصرانية » ج ص ٧٩٤ — « الأغانى » ج ٨ ص ٢٣٧ — « مهذب الأغانى » ج ٣ ص ٢٧ « المجانى الأدبية » ج ١ ص ١٥١ .

روى عنتر وضم الراء احتمل وجهين : أحدهما أن يكون قد جعل ما بقى اسماً على حاله إلا أنه قد صار طرفاً كحرف الإعراب ، والثانى : ما رواه المبرد عن بعضهم أنه كان يسمى عنتراً فعلى هذا الوجه لا يجوز إلا الضم ، هكذا ذكره النحاس ، ويجوز أن يكون عنتر على هذا الوجه منصوباً بيد عون[١] . ويذكر شارح القاموس إنه «قد يكون اسمه عنتراً كما ذهب إليه سيبويه » ولماذا منع من الصرف أى التنوين؟ على أن المتواتر فى الكتب المعتمدة وما عليه الكثيرون هو أن اسمه « عنترة » لا « عنتر » والعنترة السلوك فى الشدائد والشجاعة فى الحرب وهذا أقرب إلى مسمى بطل عبس .

واسم عنتر سمى به آخرون فهناك شاعر جاهلى هو الخنّوت توبة بن مضرس ابن عبيد الشاعر يقول فى صاحب له اسمه عنتر وآخر اسمه مرداس :

سأبكى خليلى عنتراً بعد هجعة ... وسيفى مرداساً قتيل قنان[٢]
قتيلان لا تبكى اللقاح عليهما ... إذا شربت من قرمل وأفان[٣]

وهناك عنتر التميمى جد أبى الفضل عبد الملك بن سعيد بن تميم بن أحمد بن عنتر شيخ ابن عساكر .

وسمى باسم عنترة كذلك . عنترة بن عروس الثقفى وكان مولداً ، وعنترة بن عكبرة الطائى [٤] والمتواتر وروده هو بلا شك أقرب إلى الصحيح فهو إذن عنترة .

نسب عنترة :

وعنترة هو ابن عمرو بن شداد وإن غلب اسم جده على اسم أبيه [٥] ، وقيل

(١) راجع « شرح المعلقات » للتبريزى .

(٢) قنان جبل لبنى أسد لا يزال مصروفاً بهذا الاسم فى غرب بلدة « الرس » فيما بينها وبين المدينة وهو إلى « الرس » أقرب .

(٣) القرمل شجرة ذات سويقة لا تستر والأفان غبراء من العشب .

(٤) راجع « المؤتلف والمختلف » للآمدى ص ١٥١ و ١٥٢ « وشرح القاموس » : (عتر) .

(٥) راجع مخطوط « مختصر جمهرة النسب » ص ١٢٩ وحاشيته نسخة الإدارة الثقافية معهد =

شداد عمه بن معاوية بن قراد بن مخزوم بن ربيعة ، وقيل مخزوم بن عوف بن مالك بن غالب بن قطيعة بن عبس بن بغيض بن الريث بن غطفان بن سعد ابن قيس بن عيلان بن مضر (١) ، وأما ألقابه وكناه فكثيرة وقد سبق ذكرها ومنها عنترة الفلحاء لتشقق شفتيه ، وأم عنترة هى زبيبة الحبشية وله منها إخوة عبيد من غير أبيه (٢) .

مدارج صباه ومطالع شبابه :

ولد عنترة فى الربع الأول من القرن السادس الميلادى (٣). وقد ذاق عنترة مثل أترابه ورصفائه فى صباه ممن لم يستلحقهم آباؤهم بأنسابهم مرارة الحرمان وقسوة العيش ومهانة الدار ، فقد كان أبوه وهو سيده يعاقبه أشد عقاب على ما يقترفه من هنات هينات ، وكانت سمية زوج أبيه لا يلذ لها شيء كما يلذ لها أن تدس له عند أبيه وتحوك له من المكائد ما يجعله عرضة لصارم العقاب ويوقع به أعنف العذاب ، ومن ذلك أنها حرشت عليه والده مرة وقالت له : إن عنترة يراودنى عن نفسى ، وما كان أشنعها سبة غضب لها أبوه غضباً شديداً وعصفت برأسه حميته ، فألصقه الثرى وضربه ضرباً مبرحاً بالعصا وأتبعها السيف ولكن سمية أدركتها الرحمة آخر الأمر فارتمت عليه باكية تمنعه ضربات أبيه وتذود عنه حر العصا وذباب السيف ، فرق لذلك أبوه وكف عنه ، ولعله أدرك أن تلك إحدى مكائدها للفتى ، ولكن هذه الحادثة أنطقت عنترة شعراً معبراً يصور فيه مأساة صباه حيث قال :

=المخطوطات « بلوغ الأرب » ج ١ ص١٢٦ – « الأعلام » ج ٢ ص٧٤٤ – « خزانة الأدب » ج ١ ص ٦٢ – « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٤٨ وراجع « المحبر » لمحمد بن حبيب ص ٣٠٧ – « الأغانى » ج ٨ ص ٢٣٩ « الشعر والشعراء » ج ١ ص ٢٠٤ .

(١) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٣٧ راجع « المؤتلف والمختلف » للآمدى ص ١٥١ مطبعة القدس و « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم نشر دار المعاف ص ٢٣٩ .

(٢) خزانة الأدب ص ٦٢ .

(٣) تاريخ العرب للدكتور فيليب حتى ترجمة محمد مبروك نافع ص ١٠٧ .

أمن سمية دمع العين مذروف　　لو أن ذا منك قبل اليوم معروف
تجللتنى إذ أهوى العصا قبلى　　كأنهـــا صنم يعتاد معـــكوفُ
العبد عبدكم والمـــال مالـــكم　　فهل عذابك عنى اليوم مصروفُ
تنسى بلائى إذا ما غارة لحقت　　تخر منها الطوالات السراعيفُ
يخرجن منها وقد بلت رحائلهـــا　　الماء تركفها الشم الغطاريفُ
قد أطعن الطعنة النجلاء عن عرض　　تصفر كفّ أخيها وهو منزوف (١)

وهو شعر فيه استعطاف ، وفيه اعتزاز بمشاركته فى حرب أبيه وتذكير بمواقفه منه وتفانيه فى خدمته واستماتته فى نصرته .

على أنه لم يمر طويل وقت حتى وجد أبوه نفسه مضطرًّا إلى الاعتراف بعنترة وإلى الفخر بتصحيح نسبه إليه ، وذلك أن قبيلة طى أغارت على بنى عبس ترد ثأراً لها عندها ، إذ سبق لعبس أن غزتها واستاقت إبلها ، وكان عنترة مع قومه فى حومة النزال؛ ولكنه اشترك مدافعاً لا مهاجماً، وقيل إن سبب ذلك أنه ساهم من قبل فى غزو طيئ ولكنهم بخسوه حقه فى الغنيمة إذ فرضوا له نصيب العبد منها وهو النصف فأباه ومن ثم تقاعس عن خوض المعركة ، واشتد الخطب على عبس حتى كادت أن تسلب خيراتها وتدور عليها الدوائر ، وحينئذ هتف بعنترة أبوه أن كرّ يا عنترة، ولكن عنترة الذى أوهت نفسه العبودية وأذلها الرق والذى شوى قلبه ما كان يصيبه من تعيير وما يناله من هوان ، أجابه دون مبالاة : العبد لا يحسن الكر إنما يحسن الحلاب والصر ... وحينئذ لم يجد أبوه بدًّا من أن يعطيه اعتباره ويلهمه الثقة بنفسه فصرخ فيه : كرّ وأنت حرّ . فكر عنترة يملؤه الزهو والفخار منشداً :

(١) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٣٨ — « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٧٩٤ — « مهذب الأغانى » ج ٢ ص ٢٧ — « الديوان » ص ١٠٩ .

أنا الهجين عنـــترة كل امرئ يحمى حره
أســـوده واحمـــره والشعـــرات المشعـــرة
الواردات مشـــفره[١]

وقاتل عنترة كما يقاتل الأبطال الذين يحمون عرينهم ويذودون عن حماهم أن يداس أو تطأه أرجل الأعداء ، وكانت الغلبة لفتى عبس الذى سرعان ما احتفلت القبيلة به وكرمت فيه فارسها المُعلَم وشبلها بل ليثها المناضل [٢] .

وكان عنترة ، بعد ذلك ، إذا مست كبرياؤه أو جرحت مشاعره من ناحية أمه رد على ذلك بأنه وإن تكن أمه جارية من الإماء إلا أن أفعاله وشمائله وشجاعته كل أولئك تعوض ما نقصه من جهة النسب ، لا سيما وأن أباه من خير عبس حسباً ونسباً وفى ذلك يقول :

إنى امرؤ من خير عبس منصباً شِطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ألفيت خيراً من معمّ مخول

فهو يفخر بجلائل عمله وباهر خلاله وصدقه منازلة الأعداء إذا ثار النقع وانعقد غبار المعارك ، إذ هو فى المعمعة بإقدامه وجراءة جنانه خير من المنسب ذى الخؤولة والأعمام [٣] .

حياته :

ماذا عسى أن تكون حياة عنترة ؟ شاب مفتول العضل قوى الساعد رد له

---

(١) الواردات الطويلة : « أساس البلاغة » مادة ورد ص ٢٨١ وراجع « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٥ .
(٢) « الأغانى ج ٨ ص ٢٣٩ – « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٧٩٥ .
(٣) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤٠ – « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٨ – « لباب الآداب » لأسامة بن منقذ تحقيق أحمد شاكر ص ٢١٧ و ٢١٨ – « المجانى الأدبية » ج ١ ص ١٦٢ .

اعتباره ، فانتسب إلى بيت من خير بيوت عبس وأعلاها ، ونبغ فى قبيلة بارزة عظيمة الخطر من قبائل العرب هى قبيلة « عبس » ، وتلمسه قومه فإذا هو أشجعهم قلباً وأقوى فرسانهم بطشاً وأكثرهم بصراً بفنون الحرب والقتال . وعبس قبيلة تحب الغزو وتتعشقه كمثيلاتها من قبائل العرب ، فسرعان ما دوّى ذكر فارسها فى الآفاق ، وتناقلته الأفواه وتحدثت عنه الركبان ، فإذا بعنترة البطل المرهوب ترتعد لذكره الفرائص وتحسب له القبائل ألف حساب . كان يكر كرة الليث الهصور لا تقف أمامه عقبة أو تحول دون طريدته حائلة ، وكانت له فراسة تصيب ولا تخطئ ، وكأنما ألهم نفسيات الرجال وعرف كيف يتوغل أسرارها ، ويكتنه دخائلها ، ويصل إلى مواطن القوة والضعف فيها . إنه يجول فى المعركة ويصول فإذا أبصر الجبان حائراً يترقب نهد إليه معجلاً وعاجله بالضربة القاصمة أو الطعنة الهائلة ، فإذا هو لَقًى يتشحط فى دمه صريعاً كالشاة ويبصره الشجاع فتهتز نفسه لمنظره ، وهذا شعور طبيعى فى النفس — وحينئذ يكون عنترة له بالمرصاد فلا يمهله حتى يسترد رباطة جأشه بل يلحقه بالجبان ليزاوج بينهما ويخلد له ذكراً تنخلع له القلوب وتتطامن له النفوس وتخفق له الأفئدة .

وكان يتجنب المزالق فلا يلقى بنفسه إلى التهلكة ، فهو يقدم إذا رأى الإقدام عزماً ، ويحجم إذا رأى الإحجام حزماً . ولا يدخل إلا موضعاً يرى له منه مخرجاً ومنفذاً (١) ، ولا شك أن ذلك من أقوى الأسباب التى جعلت من عنترة أشهر فرسان العرب المحنكين فى زمانه ، فالحذر ووزن الأمور مما يعين على الانتصار ويرد عوادى الهزيمة والانكسار . ولا أدل على ذلك مما فعله خالد بن الوليد سيف الله المسلول وهو الذى لم تهزم له راية قط ، وذلك فى غزوة مؤتة حيث جعل الرسول صلى الله عليه وسلم إمرة الجيش لزيد بن حارثة ، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب فإن أصيب فعبد الله بن رواحة . وكان جيش الكفار يربو على مائة ألف ، أما جيش المسلمين فكان ثلاثة آلاف ، وأنّى لهذا العدد الضئيل أن يثبت لعدوه

(١) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤٤ — « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٧٩٨ .

الكثير العدد والعدة ، وكان ما لا بد منه فقد التحم الجيشان ، فإذا أمراء جيش المسلمين وهم طليعة المجاهدين فى سبيل الله يصابون مستشهدين الواحد تلو الآخر ، ورأى خالد هول الموقف فكان أن استلم الراية وصار يرجع إلى الوراء رجوع القائد الخبير حتى انحاز إلى مؤتة ، ومكث يناوش الأعداء سبعة أيام انقطع بها القتال حيث ظن العدو أن المسلمين تتوالى عليهم الأمداد ، وقد كان ذلك بالطبع عملاً باهراً من أعمال خالد القائد الفذ ، إذ أنه لو استبسل مقدماً ومن معه لعرضوا أنفسهم لموت محقق وللاستشهاد عن آخرهم ، فليس عدوّهم بالذى يستهان بخطره ، وجاء نعى الرسول عليه السلام لقواد هذا الجيش خير مصداق لما كسبه خالد من نصر مؤزر فى تراجعه بجند الله من إطباق العدو عليهم حيث قال : « أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذها جعفر فأصيب ثم أخذها ابن رواحة فأصيب وكانت عيناه تذرفان ثم قال : حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » .

فاعتد ذلك نصراً وكسباً للمسلمين وفتحاً من الله عليهم سببه لطف الله بهم ، ثم تصرف خالد الحصيف وهكذا تكون القيادة والريادة (١) .

وهناك سبب كان من أقوى الأسباب التى حفزت عنترة إلى خوض الشدائد ، وعلى قول الشعر ألا وهو حبه الجائح لآسرة لبه ومالكة فؤاده « عبلة » بنت عمه مالك بن معاوية ، وسيأتى الحديث عن ذلك الحب فيما بعد ، ولا شك أنه من هموم الشباب فى حياته ، وهل سلمت حياة الشبان من خطرات العاطفة ووساوس الوجدان؟ إنها ركاز القلب وحافز الهمة ، وما أعظم خطر الحب وأبعد مداه فى حياة الخالدين المبرزين ! .

---

(١) « الطبرى » ج ٣ ص ١٠٧ — « نور اليقين » ص ٢٠٤ — « السيرة ب الحلبية » ج ٣ ص ٧٦ — « سيرة ابن هشام » ج ٣ ص ٤٢٧ — « محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية » لمحمد الخضرى ج ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ ط ٤ — « العمدة » لابن رشيق تحقيق محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ١٩ .

ملامح وسمات شخصية

يتمثل عنترة لعارف خبر بطولته وفروسيته ولقارئ شعره عملاقاً ضخم الجسم عظيم الهامة عبل الذراعين ملتمع العينين حاد النظرات حسن القسمات مفتول العضلات صلب العود أسود اللون .

ثم هو أبيّ لا يقبل الضيم ، حساس ذكي الفؤاد ، وفيّ لا يطيق العقوق ، جواد وافر السخاء ، شجاع قوي الأسر ، إذا جد الخطب ألفيته طليعة القوم يحمل حملة الرئبال ويكر كرة القسورة تتحاماه الفرسان وتكره لقاءه الإقبال ، وإذا نهد لعدوه فكأنه القضاء المسلط أو الشهاب المنقض أو البركان المتفجر ، أو اللهب الثائر .

ثم هو صاحب مروءة ونجدة لا يستبي النساء ويعاف المغانم ويحفظ الحرمات ويرعى الجوار ويقيل العثرات ويتسامح فى الزلات . وهو إلى ذلك داهية فى الرأى صاحب قول ومشورة ظاهر فى قومه مبرز فى عشيرته موضع أمل وموئل رغبة .

كما أنه فى الحرب حامى القبيلة وفارس القوم وقائدهم يحتمون به إذا عتا الكرب وحمى الطعن والضرب .

كل هذه الصفات خَلقية وخُلقية مكنت له شهرته فى الناس ومكانه فى القلوب وهيبته عند الأعداء واقتعاده ذروات المجد .

صور من شمائله فى شعره

يفضل عنترة الاستقلال فى الرأى وأن يكوّن الفتى لنفسه نهجاً من ذات نفسه يحث خطاه إليه لا يقوده إليه قائد أو يحمله عليه غيره ، كما يستحث الفتيان على أن يخوضوا الصعاب ويقتحموا الأزمات بفؤاد ذكى وأنف حمىّ ، وأن يجعلوا

همهم قرى الضيفان ، وحل ما يعترض طريقهم من مشكلات فلا تتبدد طاقتهم عند هبوب ريح النكبات والمصائب ولا تفزعهم الأعاصير ، وإلا كان الموت خيراً من حياة تطير نفس صاحبها شعاعاً عند ما تحل به المعضلات تزحمه الكوارث وليس له من نفسه مرشد أو هاد :

وللموتُ خير للفتى من حيـاته ... إذا لم يثب للأمر إلا بقائد
فعالج جسيمات الأمور ولا تكن ... هبيت الفؤاد همـه للوسائـد
كفى حاجة الأضياف حتى يريحها ... عن الحى منا كل أروعَ ماجد
تراه بتفريج الأمور ولفهـا ... لما نال من معروفها غير زاهد
وليس أخونا عند شرٍّ يخـافه ... ولا عند خير إن رجاه بواحد
إذا قيلَ من للمعضلات أجابه ... عظام اللهى منا طوال السواعد (١)

وهو لا يقبل الحياة مازجها الهوان مهما تكن المغريات فهى فى حلقه غصص وشجى :

لا تسقنى ماء الحياة بذلة ... بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهـنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل (٢)

وهو يحب الخيل ويتألفها ويرى أنها مانعة الأجناد وعدة الطراد :

ويمنعنا من كل ثغر نخافـه ... أقب كسرحان الإباءة ضامر
وكل سبوح فى العنـان كأنهـا ... إذا اغتسلت بالماء فتخاء كاسر (٣)

ويصف الفرس أيضاً بقوله :

أما إذا استقبلته فـكأنه ... جذع سما فوق النخيل مشذب
وإذا عرضت له استوت أقرابه ... وكأنه مستدبراً مستصوب (٤)

---

(١) « الأمالى » لأبى على القالى ج ٢ ص ١٦٥ — « الديوان » ص ٥٠ .
(٢) « الفتوة عند العرب » لعمر الدسوقى ص ٤٣٤ — « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨٢٥ .
(٣) « بلوغ الأرب » ج ٢ ص ٧٨ — المطبعة الرحمانية .
(٤) « بلوغ الأرب » ج ٢ ص ١٠١ — المطبعة الرحمانية .

ويشبه رءوس الخيل برءوس النساء :

وإنا نقود الخيل تحكى رءوسُها   رءوس نساء لا يجدن فواليا [١]

ثم هو لا يغادر المعركة حتى يرى الخيل وقد تسربلت بالدماء وعثرت بالأشلاء واحتز هو رأس زعيم العدو :

حتى رأيت الدهم بعد سوادها   حمر الجلود خضبن من جرحاها
يعثرن فى نقع النجيع جوافلا   ويطأن من حمى الوغى صرعاها
فرجعت محموداً برأس عظيمها   وتركتها جزراً لمن ناواها [٢]

ومن روائع الوصف تشبيهه الفرس الذى أرهقته الرماح بالمحتطب :

وغادرن نضلة فى معرك   يجر الأسنة كالمحتطب [٣]

ويصوّر أيضاً فى وصف حصانه فى المعركة هذه الصورة التشبيهية الرائعة :

يدعون عنتر والرماح كأنها   أشطان بئر فى لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بغرة وجهه   ولبانه حتى تسربل بالدم [٤]

وهو يعرف لنفسه مكانها فى الحروب ومنازلته للأقران وخطفه أرواحهم عند الطعان :

إنى لتعرف فى الحروب مواطنى   فى آل عبس مشهدى وفعالى
منهم أبى حقاً فهم لى والد   والأم من حام فهم أخوالى
ولربّ خيل قد وزعت رعيلها   بأقب لا ضغن ولا مجفال

---

(١) « الديوان » ص ١٩٣ .

(٢) « الديوان » ص ١٨٥ .

(٣) « تهذيب الكامل » ج ٢ ص ٣٠ – « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨٠٠ – « الديوان » ص ١٧ – « الكامل » ج ٢ ص ٤٤ .

(٤) « لباب الآداب » ص ٤٦٩ – واللبان : الصدر وتروى بثغرة نحره راجع المجانى الأدبية ج ١ ص ١٦٠ .

ومسربل حلق الحديد مدجج   كالليث بين عرينه الأشبال
غادرته للجنب غير موسد   متثنى الأوصال عند مجال (١)

وهو يتصور نفسه لا ساقى الموت ولكن الموت بعينه يصيب فيصمى :

وأنا المنية فى المواطن كلها   والطعن منى سابق الآجال (٢)

وإنه ليكسب الحرب ويصول فى ميدان الطعان ولكنه يترك لغيره كل ما كسبه غنيمة باردة فهو لا يهتم إلا باصطياد الأنفس فكأنه سهم المنية أو عزرائيل الحروب :

إذا التقيت الأعادى يوم معركة   تركت جمعهمو المغرور ينتهب
لى النفوس وللطير اللحوم ولل   وحش العظام وللخيالة السلب (٣)

وعفافه عن المغانم معروف دائماً يخبر به من شهد وقائعه :

يخبرك من شهد الوقيعة أننى   أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم (٤)

ولم يوهن عزيمته ما شهد ويشهد من ممارسة الحرب والطعان ولكن ما أثر فيه إنما هو تقادم الزمن وهجوم المشيب ومن أمثال العرب إذا طال عمر الرجل أن يقولوا لقد أكل عليه الدهر وشرب وهم يريدون أنه أكل وشرب دهراً طويلا :

فما أوهى مراس الحرب ركنى   ولكن ما تقادم من زمانى (٥)

وهو كعادة أهل الجاهلية يصف زجر الغراب فيقول :

حرق الجناح كأن لحيتى رأسه   جلمان بالأخبار هش مولع (٦)

(١) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨٥٨ .
(٢) « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ١٤٨ .
(٣) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨١٩ .
(٤) « تهذيب الكامل » ج ٢ ص ٢٩٨ .
(٥) « تهذيب الكامل » ج ٢ ص ٢٦٥ .
(٦) « البيان والتبين » ج ١ ص ٨٢ تحقيق عبد السلام هارون – « بلوغ الأرب » ج ٢ ص ٣٣٥ .

ثم هو إذا اعتذر أبلغ فى العذر عند من يقبل العذر :

لعمرى لقد أعذرت لو تعذرينني   وخشنت صدرا جيبه لك ناصح (١)

وهو إذا سخر عنف فى سخريته وترك خصمه أضحوكة العرب وإذا استمعت إليه هاجياً عمارة بن زياد والذى كان ينفس على عنترة منزلته العظيمة ويحسده على مكانته البارزة أدركت طرافة القول فى تجسيم مظاهر الخوف فى هذا النموذج البشرى المرتعد :

أحولى تنفض استك مذرويهـا   لتقتلـنى فهأنـذا عمارا
متى ما تلقنى فردين ترجـف   روانف أليتيك وتستطارا (٢)

وليس عنترة بالسفيه الطائش فإنه ليعرف مساوئ الحرب ويقدر ويلاتها ويعتقد أن حرب داحس والغبراء ستجر على قومه مصائب كثرا لم تكن لها مبرراتها ويظهر ذلك واضحاً فى رثائه لصديقه النابه :

فلله عينا من رأى مثل مالك   عقيرة قوم إن جرى فرسان
فليتهما لم يجريا قيدَ غلوة   وليتهما لم يرسـلا لرهـان
لقد جلبا حيناً وحرباً عظيمة   تبيد سراة القوم من غطفان

وفرائد عنترة فى هذا المجال وفيرة وليس ما نهدف إليه الاستقراء والاستقصاء ولكنه التدليل والتمثيل .

صور من بطولته فى حروبه وبعض أخباره :

إن فلسفة المجد عند عنترة إنما تنحصر فى مظاهر القوة والبطولة والفتك بالأعداء وإيرادهم موارد الهلكة والفناء وهى فلسفة ليست بالغريبة على عنترة بل إنها لتستمد أصولها من بيئته ونشأته وتتفرع من جذور ووشائج قلبية .

---

(١) « الأمالى » ج ١ ص ١٠٧ .
(٢) المذروان : طرفا الإليتين . الروانف : أسفل الإلية .

دعونى فى القتال أمت عزيزاً فموت العز خير من حيــاة
لعمرى ما الفخار بكسب مال ولا يدعى الغنى من السراة

وقد احتل عنترة مكانه فارساً لقبيلة عبس على ما فيها من عديد الفرسان وأنجاد الفتيان ولكنها عرفته فأحلته مكان القيادة فى حربها ونزالها .

قال عمر ابن الخطاب للحطيئة العبسى كيف كنتم فى حربكم ؟ قال : كنا ألف فارس حازم قال : وكيف يكون ذلك ؟ قال : كان قيس بن زهير فينا وكان حازماً فكنا لا نعصيه وكان فارسنا عنترة فكنا نحمل إذا حمل ونحجم إذا أحجم ، وكان الربيع بن زياد وكان ذا رأى فكنا نستشيره — ولا نخالفه ، وكان فينا عروة بن الورد فكنا نأتم بشعره فكنا كما وصفت لك فقال عمر صدقت [1] .

ومن مظاهر بأسه وشدته وقوة بلاغته وبيانه أن بنى عبس غزت بنى تميم وعليهم قيس بن زهير فانهزمت عبس وطلبتها تميم فوقف لهم عنترة يذود عنهم غارة الثائرين ولحقتهم الخيل وثبت عنترة لهم ثبات الصناديد فلم يصب مدبر منهم حتى استنقذهم من كبوتهم وكان قيس بن زهير سيد عبس فهاله ذلك الموقف وساءه ولعل ذلك كان فى مقتبل أمر عنترة فقال حين رجع والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء وكان قيس أكولاً فبلغ عنترة ما قاله فقال يعرض به فى قصيدته :

طال الثواء على رسوم المنزل بين اللكياك وبين ذات الحرمل[2]

يقول منها :

بكرت تخوفـــنى الحتوف كأننى أصبحت عن عرض الحتوف بمعزل[3]
فأجبتهـــا إن المنية منهـــل لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك وأعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

(١) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤٤ .
(٢) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٧٩٥ — « المجانى الأدبية » ج ١ ص ١٦٢ .
(٣) « البيان والتبيين » ج ٣ ص ١٨٣ تحقيق عبد السلام هارون .

إن المنية لو تمثــل مثلت ... مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل !
إنى امرؤ من خير عبس منصباً ... شطرى وأحمى سائرى بالمنصل
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت ... ألفيت خيراً من معمّ مخــول
والخيــل تعلم والفوارس أنــنى ... فرقت جمعهم بضربــة فيصل
إذ لا أبادر فى المضيق فوارسى ... أولا أوكل بالرعيــل الأول
إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا ... أشدد وإن يلفوا بضنــك أنزل
حين النزول يكون غايــة مثلنا ... ويفر كل مضلــل مستوهل
والخيل ساهمة الوجــوه كأنمــا ... تسقى فوارسهــا نقيع الحنظل
ولقد أبيت على الطوى وأظلــه ... حــتى أنال به كريم المأكل
وإذا حملت على الكريهة لم أقل ... بعد الكريهة ليتنى لم أفعل (١)

وقد استخذى قيس وحسدة عنترة عند سماعهم هذا الشعر العبقرى وشعروا بنكرانهم حقوق عنترة وأفضاله عايهم فخففوا من غلوائهم وكفكفوا من كبريائهم.

وقال عمرو بن معد يكرب الزبيدى : ما أبالى من لقيت من فرسان العرب ما لم يلقنى حرّاها وهجيناها ، يعنى بالحرين عامر بن الطفيل وعتيبة بن الحارث ابن شهاب وبالهجينين عنترة والسليك بن السلكة (٢) .

وقال ابن الكلبي : عنترة وأمه زبيبة ، وخفاف بن عمير الشريدى وأمه ندبة والسليك بن عمير السعدى وأمه السلكة (٣) .

لم يكف عنترة ما ناله فى مجال النسب حيث استلحق بأبيه بل أراد أن يستهدف ــ التشريف إخوة له من أمه كان أحبهم إليه أخاه « حنبلا » وأراد أن

(١) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤١ – « الديوان » ص ١١٨ و ١٢٠ – « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٧٩٥ « لباب الآداب » ص ٢١٧ و ٢١٨ – « الأمالى » لأبى على القالى ج ٢ ص ٧٢ ط دار الكتب – « بلوغ الأرب » للألوسى ج ١ ص ١٠٦ المطبعة الرحمانية .

(٢) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤٦ راجع ترجمة عمرو فى الشعر والشعراء ص ٣٣٢ وما بعدها – « بلوغ الأرب » ج ٢ ص ١٢٩ – « لباب الآداب » ص ١٨١ تحقيق أحمد شاكر .

(٣) « الأغانى » ج ٨ ص ص ٢٤٠ – « الشعر والشعراء » ج ١ ص ٢٠٥ .

يلحقوا بقومه فدبر لذلك أمراً ، إذ أوعز إلى أخيه (حنبل) أن يروِّى مهراً له من اللبن ثم يمر به عليه عِشاء مع إخوته فإذا قال لهم : ما شأن مهركم متخدداً مهزولا ضامراً ضرب « حنبل » بطن المهر بالسيف علامة الغضب والسخط مما يقول له عنترة وحين نفذ خطته حنبل سأله عنترة فى جمع من القوم : ما شأن مهركم متخدداً أعجر من اللبن ؟ فأهوى حنبل بالسيف على بطن المهر فضربه فظهر اللبن فقال عنترة :

أبنى زبيبة ما لمهركم ... متخدّداً وبطونكم عُجْر
ألكم بإيغال الوليد على ... إثر الشياه بشدة خُبر

فاستلحق القوم حنبلا وإخوته وألصقوه بهم ولم يرض آخرون وإن لم يضرّ ذلك عنترة [1] .

خاض عنترة أشد المعارك وأعظمها هولاً وغزا عشرات الغزوات مع قومه كيف لا وهو صاحب حربهم وقائد جيشهم ومضرب المثل فى جميع أحياء العرب بإقدامه وجرأته .

وقد تجلت فروسيته ومهارته فى الحرب والطراد أعظم ما تجلت فى معارك « داحس والغبراء » وما جرته من أيام هول وفزع سالت فيها الدماء أنهاراً بين عبس وذبيان ولا بد من الإتيان على خبر هذه الحرب التى كانت من أهم أسباب شهرة عنترة الفوارس فى ميادين القتال والتى كان أولها المراء والكلام كما هى عادة الحروب منذ بدء الخليقة حتى عصرنا هذا الذى هو الآن مسرح لأعنف حرب باردة تشنّ على أعصاب الشعوب وتعبث بآمالها ورغباتها وأخشى ما يخشاه دعاة السلام أن يعقبها اشتعال نار حرب عصرية ثالثة تستعمل فيها أفظع وسائل الدمار وأحدث ما أنتجه العقل البشرى من أسباب الفتك ومخترعات الإبادة والفناء .

---

(١) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

حرب داحس والغبراء :

وأنباء حرب داحس والغبراء كما يرويها ابن الأثير [١] ، هى أن قيس بن زهير بن جذيمة العبسى سار إلى المدينة ليتجهز لقتال بنى عامر والأخذ بثأر أبيه ! فأتى أحيحةَ بن الجلاّح يشترى منه درعاً موصوفة فقال له لا أبيعها ، ولولا أن تذمنى بنو عامر لوهبتها لك ولكن اشترها بابن لبون ففعل ذلك وأخذ الدّرع وتسمى « ذات الحواشى » ووهبه أيضاً أحيحة أدراعاً وعاد إلى قومه وقد فرغ من جهازه فاجتاز بالربيع بن زياد العبسى فدعاه إلى مساعدته على الأخذ بثأره فأجابه إلى ذلك ، فلما أراد فراقه نظر الربيع إلى حقيبته فقال ماذا فى حقيبتك ؟ فقال متاع عجيب لو أبصرته لراعك وأناخ راحلته فأخرج الدرع من الحقيبة فأبصرها الربيع فأعجبته ولبسها فكانت فى طوله فمنعها قيساً ورغب أخذها ، وترددت الرسل بينهما فلما طالت الأيام على ذلك سير قيس أهله إلى مكة وأقام ينتظر غرة الربيع ، وسير الربيع إبله وأمواله إلى مرعى كثير الكلأ وأمر أهله فظعنوا فبلغ الخبر قيساً فسار فى أهله وإخوته فعارض ظعائن الربيع وأخذ زمام أمه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته ، فقالت فاطمة أم الربيع : ما تريد يا قيس ؟ فقال أذهب بكن إلى مكة فأبيعكن بها بسبب درعى فقالت : هى فى ضمانى وخلّ عنا ففعل . فلما جاءت إلى ابنها قالت له ذلك فحلف ألاّ يردّ الدرع فأرسلت إلى قيس فأعلمته فأغار على نعم الربيع فاستاق منها أربعمائة بعير وسار بها إلى مكة ، فباعها واشترى بها خيلا وتبعه الربيع فلم يلحقه فكان فيما اشترى من الخيل داحس والغبراء وقيل إن داحساً والغبراء كانا من خيل بنى يربوع واستباهما قيس وقيل إن قيساً أنزى داحساً على فرس له فجاءت بمهرة فسماها الغبراء ، ثم إن قيسا أقام بمكة ولكن أهلها كانوا يفاخرونه فملّ مفاخرتهم وعزم على الرحلة عنهم وقال لإخوته ارحلوا بنا من عندهم والحقوا ببنى بدر فإنهم

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٥٨ .

أكفاؤنا فى الحسب وبنو عمنا فى النسب وأشراف قومنا فى الكرم ، ثم نزل ببنى بدر فنزل بحذيفة وأخيه حمل بن بدر وأقام فيهم وكان معه أفراس له ولإخوته وكان حذيفة يغدو ويروح إلى قيس فينظر إلى خيله فيحسده عليها ويكتم ذلك فى نفسه.

وكتب الربيع بن زياد إلى حذيفة يقول :

ألا أبلغ بنى بدر رسولا ... على ما كان من شنأ ووتر
بأنى لم أزل لكمُ صديقاً ... أدافع عن فزارة كل أمر
فألجأتم أخا الغدرات قيساً ... فقد أفعمتم إيغار صدرى
فحسبى من حذيفة ضم قيس ... وكان البدء من حمل بن بدر

فلم يتغيروا عن جوار قيس فغضب الربيع وغضبت عبس ، ثم إن حذيفة كره قيساً وأراد إخراجه فلم يجد حجة ، وعزم قيس على العمرة فقال لأصحابه إنى قد عزمت على العمرة فإياكم أن تلابسوا حذيفة بشىء واحتملوا كل ما يكون منه حتى أرجع فإنى قد عرفت الشرّ فى وجهه وليس يقدر على حاجته منكم إلا أن تراهنوه على الخيل وكان ذا رأى لا يخطىء فيما يريده وسار إلى مكة ، ثم إن فتى من عبس يقال له ورد بن مالك أتى حذيفة فجلس إليه، فقال له لو اتخذت من خيل قيس فحلاً يكون أصلا لخيلك فقال حذيفة خيلى خير من خيل قيس ولجّا فى ذلك إلى أن تراهنا على فرس من خيل قيس وفرس من خيل حذيفة والرهن عشرة أزواد ، وسار ورد فقدم على قيس بمكة فأعلمه، فقال له: أراك قد أوقعتنى فى بنى بدر ووقعت معى وحذيفة ظلوم لا تطيب نفسه بحق ونحن لا نقر له بضيم ورجع قيس من العمرة فجمع قومه وركب إلى حذيفة وسأله أن يفك الرهن فلم يفعل فسأله جماعة فزارة وعبس فلم يجب إلى ذلك وقال إن أقر قيس أن السبق لى وإلا فلا فقال أبو جعدة الفزارى :

آل بدر دعوا الرهان فإنا ... قد مللنا اللّجاج عند الرهان
ودعوا المرء فى فزارة جاراً ... إن ما غاب عنكم كالعيان

ليت شعرى عن هاشم وحصين   وابن عـــوف وحارث وسِنـــان
حين يأتيهم لحاجك قيســـاً   ولصـــاح أتيت أم نشـــوان

وقال قيس علام تراهننى ؟ قال على فرسياك داحس والغبراء وفرسى الخطار والحنفاء ، وقيل كان الرهن على فرسين داحس والغبراء ، قال قيس: داحس أسرع ، وقال حذيفة: الغبراء أسرع . وقال لقيس إن بصرى بالخيل أثقب من بصرك . والأول أصح [١] فقال له قيس نفس فى الغاية وارفع فى السبق . فقال حذيفة الغاية من أبلى [٢] إلى ذات الآصاد وهو قدر مائة وعشرين غلوة والسبق مائة بعير وضمروا الخيل فلما فرغوا قادوا الخيل إلى الغاية وحشدوا ولبسوا السلاح وتركوا السبق على يد عقال بن مروان بن الحكم القيسى وأعدوا الأمناء على إرسال الخيل وأقام حذيفة رجلا من بنى أسد فى الطريق وأمره أن يلقى داحساً فيرمى به إلى أسفل الوادى ، فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون إليه وقيس وحذيفة على رأس الغاية فى جميع قومهما فلما هبط داحس فى الوادى عارضه الأسدى فلطم وجهه فألقاه فى الماء فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلا وقد فاتته الخيل ، وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ وعاد إلى الطريق واجتمع مع فرسى حذيفة ثم سقطت الحنفاء وبقيت الغبراء والخطار ، فكانا إذا أحزنا سبق الخطار وإذا أسهلا سبقت الغبراء فلما قربا من الناس وهما فى وعث من الأرض تقدم الخطار ، فقال حذيفة سبقتك يا قيس فقال رويدك يعلون الجدَّد فذهبت مثلاً ، فلما استوت بهما الأرض قال حذيفة خدع والله صاحبنا فقال قيس ترك الخداع من أجرى من مائة وعشرين .

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٣٦١ ط المطبعة الأزهرية – « الشعر والشعراء » ج ١ ص ٢٠٦ – « اللسان » ٧ – ٣٧٩ و ٣٨٠ « أيام العرب » ٢٤٦ – « الأغانى » ج ٥ ص ٣٣ – « صبح الأعشى » ج ١ ص ٣٤٤ م الأميرية .

(٢) أبلى – بضم الهمزة وفتح اللام مقصورة – جبال سود واقعة فى الشمال الشرقى من معدن بنى سليم (مهد الذهب) .

فذهبت مثلا ، ثم إن الغبراء جاءت سابقة وتبعها الخطار فرس حذيفة ثم الحنفاء له أيضاً ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله فأخبر الغلام قيساً بما صُنع بفرسه ، فأنكر حذيفة ذلك وادّعى السبق ظلماً وقال جاء فرساى متتابعين ومضى قيس وأصحابه حتى نظروا إلى القوم الذين حبسوا داحساً واختلفوا وبلغ الربيع بن زياد خبرهم فسره ذلك وقال لأصحابه هلك والله قيس وكأنى به إن لم يقتله حذيفة وقد أتاكم بطلب الجوار أما والله لئن فعل مالنا من ضّمه من بد. ثم إن الأسدى ندم على حبس داحس فجاء إلى قيس واعترف بما صنع فسبه حذيفة ، ثم إن بنى بدر آذوا قيساً وإخوته بالكلام فعاتبهم قيس فلم يزدادوا إلا بغياً عليه وبذاءة له ، وتناكر قيس وحذيفة فى السبق حتى همّا بالمؤاخذة ، فمنعهم الناس وظهر لهم بغى حذيفة وظلمه ولجّ فى طلب السبق فأرسل ابنه ندبة إلى قيس يطالبه به فلما أبلغه الرسالة طعنه فقتله وعادت فرسه إلى أبيه ونادى قيس يا بنى عبس الرحيل فرحلوا كلهم ولما أتت الفرس حذيفة علم أن ولده قتل ، فصاح فى الناس وركب فيمن معه وأتى منازل بنى عبس فرآها خالية ورأى ابنه قتيلا فنزل إليه وقبل بين عينيه ودفنوه ، وكان مالك بن زهير أخو قيس متزوجاً من فزارة وهو نازل فيهم فأرسل إليه قيس إنى قد قتلت بدر بن حذيفة ورحلت فالحق بنا وإلا قتلت . فقال إنما ذنب قيس عليه ولم يرحل فأرسل قيس إلى الربيع بن زياد يطلب منه العودة إليه والمقام معه إذ هم عشيرة وأهل فلم يجبه ولم يمنعه ، ثم إن بنى بدر قتلوا مالك بن زهير أخا قيس فبلغ مقتله بنى عبس والربيع بن زياد فاشتد ذلك عليهم وأرسل الربيع إلى قيس عيناً يأتيه بخبره فسمعه يقول :

أينجو بنو بدر بمقتل مالك ... ويخذلنا فى النائبات ربيع
وكان زياد قبله يتقى به ... من الدهر إن يومٌ ألمّ فظيع
فقل لربيع يحتذى فعل شيخه ... وما الناس إلا حافظ ومضيع
وإلا فمالى فى البلاد إقامة ... وأمر بنى بدر علىّ جميع

فرجع الرجل إلى الربيع فبكى الربيع على مالك وقال :

منـــع الرقاد فما أغمـّض ساعة جزعاً من الخبر العظيم السارى
أفبعـــد مقتل مالك لمضيعـــة يرجو النساء عواقب الإطهار
من كان محزونـــاً بمقتل مالك فليـــأت نسوتنـــا بوجه نهار
يجد النســـاء حواسراً يندبنـــه ويقمن قبـــل تبلج الأسحـــار
يضربن حـــرّ وجوههن على فتى ضخم الدسيعـــة غير ما خوّار

وهى قصيدة طويلة فسمعها قيس فركب هو وأهله وقصدوا الربيع بن زياد وهويصلح سلاحه فنزل إليه قيس وقام الربيع فاعتنقا وبكيا وأظهرا الجزع لمصاب مالك ولّى القوم بعضهم بعضاً فقال قيس للربيع إنه لم يهرب منك من لجأ إليك ولم يستغن عنك من استعان بك وقد كان لك شرّ يومىّ فليكن لى خير يوميك وإنما أنا بقومى وقومى بك وقد أصاب القوم مالكاً ولست أهمّ بسوء لأنى إن حاربت بنى بدر نصرتهم بنو ذبيان وإن حاربتنى خذلنى بنو عبس إلا أن تجمعهم علىّ وأنا والقوم فى الدماء سواء قتلت ابنهم وقتلوا أخى وإن نصرتنى طمعت فيهم وإن خذلتنى طمعوا فىّ . فقال الربيع يا قيس إنه لا ينفعنى أن أرى لك من الفضل ما لا أراه لى ولا ينفعك أن ترى لى ما لا أراه لك وأنت ظالم ومظلوم ظلموك فى جوادك وظلمتهم فى دمائهم وقتلوا أخاك بابنهم فإن يبؤ الدم بالدم فعسى أن تلقح الحرب أُقم معاك ، وبعث قيس إلى أهله وأصحابه فجاءوا ونزلوا مع الربيع وأنشدهم عنترة بن شداد مرثيته فى مالك ــ وكان صديقه ــ التى يقول منها :

فلله عينا من رأى مثل مالك عقيرة قوم إن جرى فرســـان
فليتهما لم يطعما الدهر بعدهـــا وليتهمـــا لم يجمعـــا لرهـــان
وكنا لدى الهيجاء نحمى نساءنا ونضرب عنـــد الكرب كل بنان

فسوف ترى إن كنتَ بعدك باقياً　　وأمكنني دهـــري وطول زماني
فأقسم حقـــا لو ، بقيتُ لنظرة　　لقرّت بها العينان حين تراني (١)

وبلغ حذيفة أن الربيع وقيساً اتفقا عليه فشق ذلك عليه واستعد للبلاء وجمع الربيع وقيس قومهما واستعدوا للحرب . فأغارت فزارة على بنى عبس فأصابوا نعماً ورجالاً فحميت عبس واجتمعت للغارة والتقوا على ماء يقال له العذق ، وهى أول وقعة كانت بينهم فأقتتلوا قتالا شديداً وانهزمت فزارة وقتلوا قتلاً ذريعاً وأسر الربيع بن زياد حذيفة بن بدر وكان حرّين الحارث العبسى قد نذر إن قدر على حذيفة أن يضربه بالسيف وله سيف قاطع يسمى « الأصرم » فأراد ضربه بالسيف لما أسر وفاء بنذره فأرسل الربيع إلى امرأته فغيبت سيفه وحذروه عاقبة فعله فأبى إلا ضربه ، فوضعوا عليه الرجال فضربه فلم يصنع السيف شيئاً وبقى حذيفة أسيراً واجتمعت غطفان وسعوا فى الصلح فاصطلحوا على أن يهدروا دم بدر بن حذيفة بدم مالك بن زهير ويعقلوا عوف بن بدر ويعطوا حذيفة بن بدر عن ضربته التى ضربها حرّ مائتين من الإبل وأن يجعلوها عشاراً كلها وأربعة أعبد وأهدر حذيفة دماء من قتل من فزارة فى الوقعة وأطلق من فى الأسر ، فلما رجع إلى قومه ندم على ذلك وساءت مقالته فى بنى عبس وركب قيس بن زهير وعمارة بن زياد فمضيا إلى حذيفة وتحدثا معه ، فأجابهما إلى الاتفاق وأن يرد عليهما الإبل التى أخذت وكانت توالد عنده فبينما هم فى ذلك إذ جاءهم سنان بن أبى حارثة المرّى فقبح رأى حذيفة فى الصلح وقال إن كنت لا بد فاعلا فأعطهم إبلا عجافاً مكان إبلهم واحبس أولادها فوافق ذلك رأى حذيفة فأبى قيس وعمارة ذلك وجعل سنان يحث حذيفة على الحرب فتيسروا لها وظهر بغى حذيفة وأغار حذيفة على عبس وأغارت عبس على فزارة وتجدد القتال واستحر ولّى قيس فى

(١) أوردنا هذه المرثية فى باب المختار من شعر عنترة ويروى البيت الثانى : « فليتهما لم يجريا نصف غلوة » .

فزارة جمعاً فيهم مالك بن بدر فقتله .

ويمضى ابن الأثير معدّداً الوقائع التى شب أوارها بين الفريقين فى هذه الحرب الضروس وما اصطلمته من شباب وفتيان كان فيهم ابن لقيس بن زهير قتل غدراً كما قتل أكثر أبناء حذيفة بن بدر .

وفى جفر الهباءة [١] كان مع حذيفة أخوه حمل بن بدر وابنه حصن بن حذيفة وغيرهم وقد لجأوا هاربين فهجم عليهم قيس والربيع فناشدوهم الله والرحم فلم يقبلوا منهم ، ودار قرواش بن عمرو حتى وقف خلف ظهر حذيفة فضربه فدقّ صلبه وقتلوا حملا أخاه وقطعوا رأسيهما واستبقوا حصن بن حذيفة لصباه وكان عدد من قتل فى هذه الموقعة من فزارة وأسد وغطفان يزيد على أربعمائة قتيل وقتل من عبس ما يزيد على عشرين .

واجتمعت فزارة إلى سنان بن أبى حارثة المرى وشكوا إليه ما نزل بهم فأعظمه وبعث رسله ليجمع العرب ويأخذ بثأرى بدر وفزارة واجتمع من العرب خلق كثير لا يحصون وساروا إلى بنى عبس فلما بلغهم مسيرهم قال قيس الرأى ألا نلقاهم ونرسل الظعائن والأموال إلى بنى عامر فإن الدم لنا قبلهم ونماطلهم القتال فإن أبوا إلا القتال قاتلناهم وصبرنا فإن ظفرنا فهو الذى نريد وإن كانت الأخرى كنا قد احترزنا ولحقنا بأموالنا ونحن على حامية وسارت ذبيان ومن معها فلحقوا بنى عبس على « ذات الجراجر » فاقتتلوا قتالا شديداً وظهرت فى هذه الأيام شجاعة عنترة بن شداد [٢] ولام الناس سناناً على منعه الصلح فلما رأى فتور أصحابه رحل عائداً فلما عاد عنهم رحل قيس وبنو عبس إلى بنى شيبان بن بكر وجاوروهم وبقوا معهم مدة فرأى قيس من غلمان شيبان ما يكرهه من التعرض لأموالهم فرحلوا عنهم فتبعهم جمع من شيبان فلقيتهم بنو عبس فانهزمت شيبان ونزلوا بماء يقال له

---

(١) راجع « العمدة » لابن رشيق تحقيق محى الدين عبد الحميد مطبعة حجازى ج ١ ص ١٩٣.
(٢) راجع « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ٣٠٦ .

« عرعر » عليه حى من كلب فركبوا ليقاتلوا بنى عبس فبرز الربيع وطلب رئيسهم فبرز إليه واسمه مسعود بن مصاد فاقتتلا حتى سقطا إلى الأرض وثار به الربيع فقطع رأسه وانهزمت كلب وغنمت عبس أموالهم وذراريهم فساروا إلى اليمامة فحالفوا أهلها من بنى حنيفة وأقاموا ثلاث سنين فلم يحسنوا جوارهم وضيقوا عليهم فساروا عنهم فراسلتهم بنو ضبة وعرضوا عليهم المقام عندهم ففعلوا واستعانت بهم ضبة على حرب تميم فأعانوهم وحين انقضى الأمر تغيرت ضبة لعبس فحاربتهم عبس فظفرت وغنمت وسارت إلى بنى عامر وحالفوا الأحوص بن جعفر بن كلاب فسربهم ليقوى على حرب بنى تميم ، ثم إن ذبيان غزت بنى عامر وفيهم بنو عبس فاقتتلوا فهزمت عامر وأسر قرواش بن هنى العبسى ولم يعرف ، فلما قدموا به الحى عرفته امرأة فيهم فلما عرفوه سلموا إلى حصن بن حذيفة فقتله ثم رحلت عبس عن عامر ونزلت بتيم الرباب فبغت تيم عليهم فاقتتلوا قتالاً شديداً وتكاثرت عليهم تيم فقتلوا من عبس مقتلة عظيمة ورحلت عبس وقد ملوا الحرب ، وقلت الرجال والأموال وهلكت المواشى ، فقال لهم قيس : ما ترون قالوا نرجع إلى إخواننا من ذبيان فالموت معهم خير من البقاء مع غيرهم ، فساروا حتى قدموا على الحارث بن عوف بن أبى حارثة المرى ، وقيل على هرم بن سنان بن أبى حارثة ليلاً . وكان عند حصن بن حذيفة بن بدر فلما عاد ورآهم رحب بهم ، وقال من القوم؟ قالوا إخوانك بنو عبس وذكروا حاجتهم. فقال نعم وكرامة وأخذهم إلى حصن فلما رآهم قال قيس والربيع بن زياد نحن ركبان الموت قال بل ركبان السلم ثم خرج معهم وقال لسنان قم بأمر عشيرتك وأصلح بينهم فإنى سأعينك ففعل ذلك وتم الصلح بينهم وعادت عبس (١) .

هذا ما رواه ابن الأثير فى تاريخه وقد عرض صاحب العقد الفريد أحمد بن

---

(١) ابن الأثير ج ١ ص ٢٥٨ و٢٥٩ و٢٦٠ و٢٦١ و٢٦٢ و٢٦٣ و٢٦٤ و٢٦٥ و٢٦٦ و٢٦٧ – راجع « تاريخ الأدب العربى » للسباعى بيومى ج ١ ص ٣٤ و٣٥ .

عبد ربه فى مصنفه لبعض مواقع حرب داحس والغبراء ومنها يوم المريقب [١] لبنى عبس على فزارة وفيه يقول عنترة :

ولقد علمت إذا التقت فرسانها يوم المريقب أن ظنّك أحمق

وذو المريقب من أرض الشَّربَّة اقتتل فيه الفريقان وقتل من بنى فزارة عوف ابن زيد بن عمرو بن أبى الحصين وضمضم أبو الحصين المرّى قتله عنترة الفوارس وقد بلغ عنترة أن حصيناً وهرماً ابنى ضمضم يشتمانه و يتوعدانه فقال فى معلقته التى سيأتى الحديث عنها فيما بعد :

ولقد خشيت بأن أموت ولم تقم للحرب دائرة على ابنى ضمضم
الشاتمى عرضى ولم أشتمهمـــا والناذرين إذا لم ألقهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهمـــا جزر السباع وكل نسر قشعم [٢]

والمرجح أن الحارث بن عوف وهرم بن سنان هما اللذان سعيا للصلح بين عبس وذبيان — وتحملا ديات القتلى بين الفريقين وفيهما يقول زهير بن أبى سلمى من معلقته :

تداركتما عبساً وذبيانَ بعد ما تفانوا ودقّوا بينهم عِطر منشم
فأصبحتما منهـــا على خير موطن بعيدين فيهـــا من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليـــا معد وغيرها ومن يستبح كنزاً من المجد يعظم [٣]

تلك صورة مصغرة للحرب المشهورة بحرب داحس والغبراء يستشف منها القارئ كيف كانت حال عبس قبيلة عنترة من الشّماس والإباء فهى قبيلة تأنف الضيم ولا سيما من ذوى القرنى وكأنها تتأسى بقول طرفة :

---

(١) « العقد الفريد » — المطبعة الجمالية — ج ٣ ص ٣١٤ و ٣١٥ .

(٢) « العقد الفريد » ج ٣ ص ٣١٥ ط المطبعة الجمالية — « خزانة الأدب » ج ١ ص ٦٢ .

(٣) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٥١٦ و ٥١٧ — راجع ترجمة زهير فى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ٨٦ — « جمهرة أشعار العرب » المطبعة الرحمانية ص ٧٠ و ٧١ — « تاريخ الأدب العربى » للزيات — ط سادسة — ص ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٦ — « تاريخ الأدب العربى » للسباعى بيومى ج ١ ص ٣٥ — « المجانى الأدبية » ج ١ ص ٨٠ إلى ص ٩٦ وغيرها .

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

ثم كيف استنزفت هذه الحرب دماءها وقواها واستهدفت زهرة شبابها وخيرة فتيانها حتى لقد ظلت هذه الحرب طيلة أربعين عاماً تنخر فى شباب الفريقين وشيوخهم نخر السوس وتصطلم أخضرهم ويابسهم ، ورغم ما أرّثته تلك الحرب الضروس من حزازات وضغائن وما ولّدته من ثارات وسخائم لم تستطع أن تقضى على شعور العصبية والعنصرية القبلى فى نفوس الفريقين فحلّ بينهم السلم أخيراً محل الحرب وذاقت نفوسهم برد الوئام بعد الويل والخصام . ولا يعجبن القارئ أو يذهبن به الظن كل مذهب فى بواعث هذه الحرب ودوافعها ومقدماتها التى لا تهيئ للذهن نتائجها من المصائب والويلات فقد كان ذلك العصر عصراً تهون فيه النفوس ولا يرضى فيه أحد بالاعتداء سواء على العرض أو المال أو الولد كما أن كثيراً من غرائز النفوس وأحاسيسها لم تتهذب ولم يسلس طابعها الخشن الفظ وإن كانت هذه الحياة الجافة التى تصارعت فيها قوى الشر كانت حفيلة بمُثُل النجدة والحمية طافحة بشعور التعاون والتآزر بل التسامح حين يشتد الخطب ويتفاقم الكرب .

ونكتفى بما أوردناه من صور لبطولة عنترة وما ذكرناه عن حرب داحس والغبراء التى استنفدت أعظم جهود فتانا فى الحرب والتى كانت البوتقة التى انصهرت فيها مزاياه من الشجاعة فى القتال والصبر على مرّ الكفاح فى سبيل نصرة مبادئ قومه ورفع شأن قبيلته .

ولقد جاءت حرب داحس والغبراء فى مدة لا تبعد كثيراً عن عقد الصلح فى حرب البسوس — وهى أقدم حروب البدو وأشهرها — ويعد الدكتور فيليب حتى عنترة الذى اشتهر أمره فيها شاعراً ومحارباً أخيل (ACHILLES) عصر البطولة العربى (١) — تشبيهاً ببطل اليونان الشهير الذى سجلت أمجاده إلياذة هوميروس الشاعر الخالد .

(١) « تاريخ العرب » للدكتور فيليب حتى ج ١ ص ١٠٧ ط دار العالم العربى — الطبعة الثانية — ترجمة محمد مبروك نافع .

دفاعه عن اللون الأسود

ولد عنترة أسود البشرة أبنوسى الأديم ليس له فى ذلك من يد ، إنما هو صنع خالقه الذى أتقن كل شىء . وكانت أمه أَمَة اختارها أبوه ، فإن يكن فى ذلك من عاب فليس هو ذنبه فالإنسان ليس له فى اختيار الكيفية والشكل اللذين يولد بهما نصيب ؛ وإنما هو عمل الأقدار وإرادة الحكيم الجبار .

على أنه متى كان اللون منقصة لصاحبه ؟ لا سيما إذا خلص نسبه من جهة أبيه وقد قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « لا فضل لأبيض على أسود ولا لعربىّ على عجمىّ إلا بالتقوى » فسواد اللون لا يعيب الشخصية الكاملة والتقى الأسود فى الإسلام خير ألف مرة من الأبيض عالى الحسب والنسب إذا كان لا يرعى حرمات الدين لذلك ! فإن من عابوا على عنترة سواد لونه إنما يشعرون بمركب نقص خبيث فقد بهرتهم شجاعته وهالهم فتأوه ومضاؤه وسعة حيلته فى الحرب وحنكته فى ميادين الشرف والفخار ، فحاولوا أن يشعروه نقصاً وأن يقللوا من أهميته ولم يعرفوا أنهم بذلك قد زادوه مضياً فى إدراك المجد وحفزوه على السير قدماً فى اكتساب محامد جديدة ومناقب حميدة ثم هم لم يسلموا من لسانه الذرب الحاد.

ومن بيانه الساحر القاطع فقد دافع عن لونه أحرّ دفاع ــ وشاد ــ ولا تثريب ــ بما هو عليه من سجايا نبيلة وخلائق كبيرة تقوّض ما يتوهمونه من نقص بل ما يريدون إلصاقه به من معائب فهو يدافع عن لونه بما يشبهه هذا اللون مما هو محبوب مرغوب فيه وبماله من فعال غرّ وأيد بيض وترفع عن الدّنايا حين يقول :

وإن أك أسوداً فالمسك لونى ... وما لِسواد جلدى من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عنى ... كبعد الأرض عن جو السماء (١)

---

(١) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨١٦ « الديوان » ص ٧ .

حقّاً إنه لقول عداة لايقصد به إلا الإثارة والإيذاء وهل نسى من يعيره من قومه بسواد لونه سود فعالهم ودُكن خصالهم وخبث طواياهم .

يعيبون لونى بالسواد وإنمـــا فعالهم بالخبث أسود من جلدى (١)

أما هو فإن يكن أسود فخصاله بيضاء نقية تشف عن طهر قلبه وصفاء سريرته .

تعـــيرنى العدا بسواد جلـــدى وبيض خصـــائلى تمحو السوادا
سلى يا عبل قومك عن فعالى ومن حضر الوقيعة والطرادا (٢)

ثم هو رفيع المكانة دائماً عزيز الجانب أبداً فلن يضيره سواد جلده شيئاً .

وإن كان جلدى يرى أسودا فلى فى المكارم عز ورتبة (٣)

ثم ماذا يقول الأعداء لقد قصرت هممهم عن همته فهم يؤذونه فى لونه واسم أمه ؛ وهو إمعاناً فى كيدهم سيمضى فى طريقه إلى نيل كل مجد وحيازة كل تشريف وليصنعن العجائب وليفرعن بلاغة الفصحاء ويخرسهم بفصاحته ولسنه .

ما ساءنى لونى واسم زبيبــة إذ قَصُرت عن همـــتى أعدائى
فلئن بقيت لأصنعن عجائبـــاً ولأبكمنّ بلاغة الفصحاء (٤)

وحقّاً لقد فعل من العجائب ما ليس عليه من مزيد وما جعل لاسمه دويّاً شغل الآذان .

وليس عنترة بدعاً فى لونه فهناك عشرات وعشرات غيره من أغربة العرب الذين جاءهم سواد اللون من قبل أمهاتهم ومنهم خفاف بن ندبة ، وأبو عمير بن

---

(١) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨٣٢ .
(٢) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨٢٩ .
(٣) « الديوان » ص ٩ تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبى – شركة فن الطباعة .
(٤) « الديوان » ص ٧ .

الحباب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، ولكنه مخضرم قد ولى فى الإسلام . ومن الإسلاميين عبد الله بن خازم ، وعمير بن أبى عمير ، وهمام بن مطرف ، ومنتشر بن وهب ، ومطر بن أوفى ، وتأبط شرا ، والشنفرى [١]. بل إن من العبيد من شرفوا وزاد قدرهم على الأحرار كبلال مؤذن الرسول رضى الله عنه وكأخيه وقد تزوجا من بنى ليث الذين يعدون من أحسن الفرسان .

على أن عنترة إذا كان ضيق الصدر فى مبدأ أمره بمن يلاحيه فى سواد لونه فإنه قد اطمأن آخر الأمر إلى مكانته رغم آناف الحساد وكبت مقالة هؤلاء الخصوم هاتفاً .

لئن يعيبوا سوادى فهو لى نسب ... يوم النزال إذا ما فاتنى النسب[٢]

وهذا منتهى الاعتزاز بلونه . ومنتهى شعور عنترة بالثقة فى نفسه ومَن أجدرُ من عنترة فى زمانه بأن يكون قوىَّ الثقة بالنفس شاعراً بعظمة شخصيته وعلو شأنه ومكانه .

كما أن من يشنؤه بسواد اللون وهو صفة ظاهرية لا تمت بحال إلى جوهر أخلاقه وخلائقه ولا تصل إلى أغوار سجاياه ومزاياه فإنه لأقوى منه حجة وأبلغ عملاً فيما أتاه ويأتيه من صنوف المكارم وألوان المفاخر والمآثر .

ومن قال إنى أسود ليعيبنى ... أريه بفعلى أنه أكذب الناس [٣]

وإن كانت أمه أمة فما يلقح الطعان ويبرز على الأقران كابن الأمة وإنه لفاخر بها رغم سوادها ومغيظ أعداءه وشانئيه وإنه ليجد فى صفاتها ميزات تقدر لا عيوباً تُستنكره .

---

(١) « القاموس المحيط » للفيروزبادى ج ١ ص ١١٠ مادة (غرب) مطبعة دار المأمون .
(٢) « الديوان » ص ١٠ .
(٣) « الديوان » ص ٩٣ .

وأنا ابن سوداء الجبين كأنها ضُبع ترعرع فى رسوم المنزل
الساق منهـا مثل ساق نعامة والشعر منهـا مثل حب الفلفل
والثغر من تحت اللثـام كأنه برق تلألأ فى الظـلام المسدل

كما أنه فخور بأخواله لأنهم سود .

منهم أبى حقًّا فهـم لى والد والأم من حام فهم أخوالى (١)

ونختتم هذا الفصل من الكتاب بما أورده شوقى من شعر رقيق على لسان « عبلة » وهى تخاطب أباها مدافعة عن لون فارس أحلامها معتزة به مفاخرة بشجاعته وشهرته وكرمه وذلك فى مسرحيته الشعرية الرائعة « عنترة » :

أبى عنـترة ليس بزنجـى ولا عبـد
ولم يجاب من النـوب ولم يحضر من السند
ولـكن ميسم اللـون كمـثل الأسد الورد
فـتى كالأسمر اللدن جميـل الشعر الجعد
شجاع ذائـع الصيت جواد واسع الرِّفد (٢)

المرأة فى حياته

لم تخل حياة أى شاعر فذ من امرأة تصقل شماسها وتلين عنفها وتناغم عواطفها وتلهم الشاعر رقاق المعانى وتفجر فى نفسه مصادر الوحى وفى قلبه ينابيع الحب .

ولقد ذاق عنترة كما أسلفنا من الغرام أعنفه فقد أحب أعظم الحب وأشده — ابنة عمه « عبلة » بنت مالك وكانت من أجمل نساء قومها وأبعدهم صيتاً فى اكتمال

---

(١) « الشعر والشعراء » ج ١ ص ٢٠٩ – « لباب الآداب » ص ١٨٣ .
(٢) راجع مسرحية « عنترة » الشعرية لأحمد شوقى ص ٦٥ .

العقل ونضارة الصبا وشرف المحتد ويقال إنه كان من أقسى ما يضايق هذا الحب صلف أبيها مالك وكبرياء أخيها عمرو وما كانا يقذفان به عنترة من النظر الشزر إذ يسمعان نبأ هذا الحب ويصيخان إلى أحاديث السُّمار عنه ؛ وربما زاد من وقدة غيظهما وغلوهما فى التعالى على عنترة أنه أذاع بحبه وملأ الأسماع شعراً فيه وأنه رغم لصوق نسبه بهما كانا لا يزالان ينظران إليه نظر المولى إلى العبد لاعتقادهما أنه لولا ظروف قاهرة لما كان لعنترة أن يشرف وينسب؛ على أن ما يعجب له الباحث هو أن أكثر المصادر العربية قد خرست عن ذكر عبلة إلا فى مجال تشبيب عنترة بها وحبه لها فلم تنوّه عما إذا كان قد تزوج بها أم بقى حبه معلقاً وتزوجت سواه كما هو حال جميل بثينة وكثير عزة ، وطبيعى أن قصة عنترة الشعبية قد أشارت إلى زواج عنترة بعبلة وتمتعه بوصالها وإن كان هذا القول لا يقدم أو يؤخر إن لم يدعمه سند قوى من سيرته .

وقد ذهب الأستاذ عمر الدسوقى فى كتابه « الفتوة عند العرب » إلى أن عنترة لم يتزوج عبلة بل تبتل فى محراب حبها وأن أباها وأخاها منعاه زواجها وأبيا عليه مصاهرتهما وأنها زوجت أحد أشراف قومها وزفت إليه على الرغم من عنترة[(١)]. بيد أن الأستاذ الدسوقى لم يذكر — صراحة — المصدر الذى استقى منه ذلك لكى يرجع إليه القارئ ويشايع الأستاذ الباحث فى ترجيحه هذا الرأى إذا كان وليد استقراء جدير بالاعتبار أم يخالفه فيه . وربما كان ذهاب الأستاذ الدسوقى إلى أن عنترة قد خذل فى نيله عبلة إنما هو قياس على عادة العرب من منعها بناتها أن يزففن إلى من يشبب بهن قبل الزواج وأن ما عصف برأس أبيها وأخيها من ريح الخُيَلاء لما أصاب كرامتهما كان السبب فى رفضهما خطبة عنترة وإيثارهما سواه بعبلة رغم هواهما المتبادل .

على أننى أميل إلى الرأى القائل بأن عنترة قد تزوج عبلة لعوامل وأسباب

---

(١) « الفتوة » عند العرب ص ٤٣٤ و ٤٣٧ .

منها أنه قد استلحق بنسب أبيه فزالت عنه هجنة النسب وأصبح ابن عم لعبلة بآصرة القرابة الوثيقة ثم إنه كان أشهر فرسان القبيلة بل فرسان العرب وفتوته وفروسيته مما لا يغفله من حسابه من يريد زواج عبلة إذ أنه سيتعرض لانتقام عنترة وثأره لكرامته وحبه؛ ثم إن ذلك من الأسباب التى ترغّب فى مصاهرته. فمهما يكن من تعالى والد عبلة وأخيها فعظم شأن عنترة وبلوغه مبلغ الذروة فى قومه وبين أنجاد العرب وأجوادهم كل ذلك يضغط على أعصابهما ويحفزهما إلى تزويج عبلة بابن عمها النابه الذكر .

وثمة من الأسباب شعر عنترة فلا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذكر عبلة والتشبيب بمحاسنها وتذكرها حتى فى مواقف العراك والاشتباك وهذا الغزل الشائق الموصول فى كل حين مما تأباه عليه شيمته العربية وبداوته الأبية لو كانت عبلة قد زوّجت لغيره وألحقت بكنف سواه ، فإن من اللازب والواجب عليه حينئذ أن يتناسى حبه ما أمكنه التناسى وأن يقلل إن لم يكف عن التغزل بها فى أشعاره حرصاً على كرامة رجلها وعلى شرفها وهى ابنة عمه لصقاً ، وما يجرح شعورها وشعور عمه أبيها مما لا يتواءم مع طبيعته وسجاياه فى رفع الغبن عن الغير وإنصاف المظلوم من الجور فكيف يظلم إذن ذوى قرابته الأدنين :

وظلم ذوى القربى أشد مضاضة ... على المرء من وقع الحسام المهند

وحاشا أخلاق عنترة أن تتدنى إلى مثل هذا الإسفاف .

وإذا كان عنترة صاحب غزو وحرب وكاسب غنائم فإنه كثيراً ما كان يصيب فى غزواته سبايا جميلات من حرائر العرب ، والسبية دائماً تعد فى الإماء المسترقات . ولكن عنترة كان إذا استبى إحدى الحرائر دفع إليها مهرها وتزوجها وأبى أن يسترقها كما يفعل غيره وتلك من الميزات التى سما بها على غيره [١] .

---

(١) راجع « الفتوة عند العرب » لعمر الدسوقى ص ٤٤٣ .

وراجع ص ٥ و ٦ و ٧ من كتاب « الجوارى » العدد ٥٩ من سلسلة « اقرأ » ففيها تحليل لمكانة « المرأة فى نفس العربى » .

ومن أجدر من عنترة بذلك وهو الذى ذاق ذل الرّق وعجرفة السيادة وإن كانت عبلة بنت مالك هى دائماً الأثيرة عنده المفضلة لديه .

كما أنه لم يغتصب أنثى قسراً وإرغاماً بل إنه ليتزوج المرأة برضاء وليها :

ما استمت أنثى نفسها فى موطن   حتى أوفّى مهرها مولاها

وهو ذو حفاظ وصيانة لأعراض غيره فإنه ليصل نساء قبيلته بهباته وأياديه صلة أرحام ما دامت بعولتهن معهن ولكنه لا يزورهن فى غيبة محارمهن ويربأ بنفسه عن مواطن الشبهات ومظان الرّيب لأنه حافظ للجوار والحرمات :

أغشى فتاة الحى عند حليلها   وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها
وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها (١)

إن عنترة ليكرّم المرأة تكريماً ويعرف لها منزلتها فلا يهدر كرامتها ولا يدوس شرفها ويحطم إنسانيتها .

وأما حليلته المفضلة عنده دائماً فهى عبلة لا يعدل بها سواها ولا ترقى إلى منزلتها لديه امرأة أخرى فقد أشرب حبها قلبه فلا يزاحمها فيه غيرها .

وعبلة تعرف لنفسها عنده هذه المكانة والمنزلة فهى قريرة العين بمنزلتها فخور بمكانها من قلبه لأنه طوع يديها إمّا دعت للعظائم وملاذها إن مسها مكروه وإنه متجنب ما يسوؤها حريص على عدم المساس بكرامتها وإحساسها :

ولئن سألت بذاك عبلة خبرت   إلا أريد من النساء سواها
وأجيبها إما دعت لعظيمة   وأغيثها وأعف عما سآها (٢)

وذلك هو فصل الخطاب فى عمق مودته ، وحرارة عاطفته ، وتوهج حبه وغرامه !

---

(١) « الديوان » ص ١٨٥ .

(٢) راجع « المجانى الأدبية » ج ١ ص ١٦٥ . وساها أى ساءها .

نهاية عنترة

إن القاصّ الشعبي الذى يبث قصة عنترة عليه أن يحسب ألف حساب لليلة التى يصادف أن يقص فيها نهاية عنترة، وكم يود من صميم نفسه لو عبر هذا الفصل الرهيب الذى يشعر وهو يرويه بالغصة فى حلقه ويرى الدموع تنهمر غزاراً من عيون المستمعين — ويستمع إلى التنهدات والزمجرات وقذائف الشتم تنهال على من رمى عنترة فأصماه .

وإن كنت لا أحسب كل هذا الحساب فلأننى أولاً أواجه القراء ولا أواجه مستمعين معى فى مكان واحد أتأثر لعواطفهم وأجهش لبكائهم وأتحمل بعض ما يتحملون من ألم وعذاب وما يعانون من غصص وويلات ولأننى ثانياً أورد للقراء نهاية عنترة فى روايات يجعلها بعضها موتاً أشبه بالطبيعى فلهم إذن أن يتعزّوا بما يروى ، ولهم أن يختاروا ما تطيب له قلوبهم من تلك الروايات مما لا يمس عواطفهم ولا ينال من رقة نفوسهم .

لقد انتهت حياة عنترة الحافلة بعد أن بلغ من العمر التسعين عاماً تقريباً فقد كانت منحصرة بين سنتى ٥٢٥ و ٦١٥ ميلادية [١] وذكر صاحب الأعلام أن وفاته كانت فى عام ٦٠٠ الميلادى وهو ما يوازى العام الثانى والعشرين قبل الهجرة. ومهما تكن الروايات الواردة فى تاريخ وفاته فلا شك أنه قد متع بعمر طويل يستدل على ذلك بالحروب والغزوات التى غزاها وساهم فى وقائعها كما يستند إليه بما أثر من شعره ومنه قوله :

فما أوهى مراس الحرب ركنى ولكن ما تقادم من زمانى [٢]

---

(١) « تاريخ العرب » للدكتور فيليب حتى ترجمة محمد مبروك نافع ص ١٠٧ ط الثانية دار العالم العربى — « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٤٨ ط السادسة .

(٢) « تهذيب الكامل » تحقيق السباعى بيومى ج ٢ ص ٢٦٥ .

وقد ذكر صاحب الأغانى أن عنترة أغار على بنى نبهان من طىء فطرد لهم طريدة وهو شيخ هم كبير فجعل يرتجز وهو يطردها ويقول :

آثار ظلمان بقاع محرب

وكان وزر [١] بن جابر النبهانى فى فتوة فرماه وقال خذها وأنا ابن سلمى فقطع مطاه – ظهره – ولكن عنترة تحامل بالرمية حتى أتى أهله فقال وهو مجروح :

وإن ابن سلمى عنده فاعلموا دمى   وهيهات لا يرجى ابن سلمى ولادمى
إذا ما تمشى بين أجبال طىّ   مكان الثريا ليس بالمتهضم
رمانى ولم يدهش بأزرق لهذم   عشية حلوا بين نعف مخرم

قال ابن الكلبي وكان الذى قتله يلقب بالأسد الرهيص .

وأما أبو عمرو الشيبانى فذكر أنه غزا طيئاً مع قومه فانهزمت عبس فخرّ عن فرسه ولم يقدر من الكبر أن يعود فيركب فدخل دغلا وأبصره طليعة طىء فنزل إليه وهاب أن يأخذه أسيراً فرماه وقتله .

وذكر أبو عبيدة أنه كان قد أسنّ واحتاج وعجز بكبر سنه عن الغارات ؛ وكان له على رجل من غطفان بكر فخرج يتقاضاه إياه فهاجت عليه ريح من صيف وهو بين شرج وناظرة – ماءان لعبس – فقتلته ووجد بينهما ميتاً .

وروايات أكثر المصادر العربية لا تخرج عما رواه صاحب الأغانى وربما كان ذلك لأن أكثرها مستقى من الأغانى [٢] .

على أن الرواية المتداولة والتى هى أقرب إلى المرجح من الروايات أن عنترة قد مات مقتولا إثر رمية السهم الذى فوّق إليه ممن يلقب بالأسد الرهيص ونظراً

---

(١) راجع مخطوط « مختصر جمهرة النسب » ص ١٢٩ – نسخة الإدارة الثقافية بالجامعة العربية (معهد المخطوطات) .

(٢) « الأغانى » ج ٨ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ – « الشعر والشعراء » ج ١ ص ٢٠٦ و ٢٠٧ – « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٧٩٨ – « الأعلام » ج ٢ ص ٧٤٤ – « خزانة الأدب » ج ١ ص ٦٢ « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٤٨ ط سادسة .

لكبر سنه وكلال بصره فإنه لم يستطع أن يتحامى الرمية من السهم المراش الغادر الذى سدد إلى ظهره [١] .

والأدب الرفيع لا يستطيع أن يغفل سحر الخيال البارع فى الميتة التى اختارها القصاص لعنترة ختاماً لحياته ، وكان « لامرتين » الشاعر الفرنسى الكبير معجباً أشد الإعجاب بالقدرة الفنية فى هذا الختام الذى يتلخص فى أن عنترة البطل حينما أصيب بالسهم المسموم الذى ريّشه إليه الأسد الرهيص أحسّ أنه ميت لا محالة وحينئذ اتخذ خطة الليث المناضل حتى بعد مماته فقد ظل ممتطياً صهوة جواده مرتكزاً على رمحه السمهرى ثم أمر الجيش بأن يتراجع القهقرى وينجو من بأس الأعداء وظل فى وقفته تلك حامياً ظهر الجيش والعدو يبصر الجيش الهارب ولكنه لا يستطيع اللحاق به لاستبسال قائده البطل فى الذياد عنه ووقوفه دونه ولهيبة الفارس المحارب حتى نجا الجيش وأسلم عنترة الروح ولكنه بقى فى مكانه متكئاً على الرمح وظل جواده ثابتاً ، فلما طال وقوفه وجاوز الحد المألوف ارتاب العدو فى الأمر وشك فى مصير البطل فأطلق إلى الجواد حجراً لتهيجه وحين بصر بها الجواد شب براكبه فخر الفارس على الأرض بعد أن ثأر لنفسه بإضاعته فرصة النصر على عدوه وحماية قومه من براثنه .

ولكن ما يغلب على الظن أن القاص إنما استوحى هذا الختام الماهر من حكاية موت النبى سليمان بن داود أمام عماله من المردة المسخرين من الجن والذى قصته الآية الكريمة فى أبلغ وصف معجز (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خرّ تبينت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين [٢]) .

وهكذا انتهت حياة عنترة .

---

(١) « المؤتلف والمختلف » ص ٩٩ — مطبعة القدسى .

(٢) راجع « أصول الأدب » للزيات ص ٥٠ مطبعة الرسالة .

انتهت حياة أشهر فارس فى الجاهلية ، وأحذق من ضرب بالسيف وطعن بالرمح وقاد الكتائب فيها وخاض غمار الحروب منصوراً مظفراً .

انتهت حياة عنترة بعد أن ترك فى سمع الدنيا دويا خالداً وبنى لقبيلته مجداً سيبقى ما كرّ الجديدان وما تعاقب الملوان .

والبطل الذى كان اسمه يرعب الأقيال ، وذكره يفزع القساورة الأنجاد أوى هادئاً إلى شق من الأرض صار بعده لحداً مراراً .

انتهت حياته يؤرجها مجد عطر ، وتتوجها قولة مأثورة قالها سيد الخلق وصفوة الرسل محمد المصطفى عليه السلام :

« ما وصف لى أعرابى قطّ فأحببت أن أراه إلا عنترة »

وكفاه بذلك نباهة شأن وخلود ذكر !

قصة عنترة كما ألفها القصاص

تعد قصة عنترة الشعبية المتداولة أعظم القصص العربية وأطولها ، بكثرة ما حشد فيها من حوادث وما صور فى ثناياها من وقائع وأحداث وما بث فى صفحاتها من أشعار ، منها ما أثر عن عنترة وأكثرها ملفق مصنوع تظهر فيه الركاكة ويفشو الافتعال ، وقد اقتضاه سياق القصة وسردها ليس غير !

وقد نالت هذه القصة المشهورة — ولا تزال — حظوة فى أوساط عامة الناس وجماهيرهم فهى محور أسمار الكثيرين يشغفون بما حفلت به من مواقف الفروسية والطراد ، وبما تبثه من ضرام العواطف ونزعات الوجدان وما تعرض له من صور الفخار وأنباء الحروب والغزوات التى إن يكن لبعضها سند من الواقع وركاز من

الحقائق فإن أكثرها موضوع واضح الاختراع للترويح عن النفوس وإشباع بعض النزعات ، وملء الفراغ الزمنى عند ما لا يجدون كيف يقضون أوقات الفراغ من طوائف العامة وبعض طبقات الشعب .

أما واضع قصة عنتره الشعبية فهو يوسف بن إسماعيل شيخ القصاص على الإطلاق فى عهد العزيز بالله الفاطمى وكان عصر الفاطميين بمصر عصراً ازدهرت فيه القصص إذ وجد فيها الفاطميون وسيلتهم لاستدرار عطف النفوس واجتلاب مودة الناس لهم ولشيعتهم باعتبارهم من أهل بيت النبوة (١) .

ويقال إن سبب وضع قصة عنترة فى عهد العزيز بالله الفاطمى وخلافته بين عامى ٣٦٥ و ٣٨٦ أنه حدثت ريبة فى دار العزيز تلاقفتها الألسن ولهجت بها الناس فى المنازل والأسواق وللناس آذان تحب اللغط وآناف تتشمم أسرار الدور والقصور فساء ذلك العزيز وأوعز إلى الشيخ يوسف أن يشغل الناس بما عسى أن يصرفهم من شائق القصص عما حدث من ريبة ، وكان الشيخ يوسف واسع الرواية عظيم الدراية بأخبار العرب وأيامهم وحروبهم ووقائعهم كثير النوادر والأحاديث وكان ممن رووا عن أبى عبيدة ونجد بن هشام وجهينة اليمانى الملقب بجهينة الأخبار وغيرهم من الرواة فأخذ يكتب قصة عنترة ويوزعها على الناس فأعجبوا بها إعجاباً شديداً وأخذوا بما أبرزها فيه من رونق خلاّب وتسلسل للحوادث وقد قسمها سبعين كتاباً وحرص على أن يشغف القارئ حبا بمطالعة الكتاب الذى يلى ما قرأه إذ يوقفه عند معظم الأمر الذى يشتاق القارئ للوقوف على تمامه والوصول إلى خبره مجتزئاً الكلام عند ذلك الحد فلا يفتر عن طلب الكتاب الذى يليه ، وهكذا دواليك كما هو الحال فى كتاب ألف ليلة وليلة وكما يفعل بعض الكتاب المعاصرين وبعض المجلات التى تنشر القصص المتسلسلة بغية اجتذاب اهتمام القراء والحصول على رواج المجلات .

(١) راجع « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجى زيدان » « والتوجيه الأدبى » ص ١٨ .

وقد حاول الشيخ يوسف أن يثبت فى هذه الكتب ما ورد من أشعار العرب المذكورين فيها ولكن كثرة تداولها وتعدد نسخها أفسد روايتها وجعلها عرضة للمسخ والتشويه وتحوير الشعر وتحريفه كما شجع على اصطناع بعض ما بث فيها من أشعار لم ترو عن عنترة ولا عن الذين نسبت إليهم وإنما أضيفت إلى القصة من خيالات النساخ ورغبتهم فى التزيد والتطرف والحصول على رضاء العامة وتملق رغباتهم ، وتلك آفة الكتابة والكتاب [١] .

كما أن الشيخ يوسف نسب هذه القصة إلى الأصمعى تعظيماً لشأنها [٢] .

وقيل أيضاً إن واضع هذه القصة هو الشاعر الطبيب أبو المؤيد محمد بن الصائغ الجزرى وممن قال بهذا الرأى الأستاذ كوسين برسيفال الذى طبع لهذه السيرة ملخصاً فى باريس وقد ذكر ذلك فى المجلة الأسيوية سنة ١٨٣٣ وسنة ١٨٤١ [٣] .

وتعد قصة عنترة ملحمة حماسية من ملاحم العرب وقد بنيت فى معظمها على حادثة داحس والغبراء التى تقدم الكلام عنها آنفاً والتى استعر لظى الحرب فيها بين قبيلتى عبس وذبيان ثم كانت محوراً لقصة (عنترة) فذكرت فيها رجولته وبطولته وفصاحته وزكانته وكرمه ونجدته وعفته وحبه وإباؤه ثم ما تبع ذلك من عادات وتقاليد عربية خالصة ، وهى فى نظر الأستاذ أحمد حسن الزيات إلياذة العرب بما تضمنته من جاذبية الأحداث وطلاوة العرض على أن من عيوبها — فى نظره — كملحمة ركاكة الأسلوب وبناؤها على حروب أهلية شبت بين شعب واحد ومن الحوادث البارزة فيها وصف مقتل عنترة وقد كان معجباً به الشاعر الفرنسى الشهير « لامرتين » إعجاباً كبيراً . [٤]

وقصة عنترة رغم ما فيها من حشو وتلفيق ومبالغات فى الخبر والوصف ورغم

(١) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨٨٢ .
(٢) راجع « أصول الأدب » للزيات ص ٢٤١ .
(٣) المصدر السابق ص ٤٦ ، ٢٤١ .
(٤) « أصول الأدب » للزيات ص ٤٩ و ٢٤١ و ٢٤٢ .

اقتحامها تعد أثراً هاماً من آثار ثقافة العرب وأسفاراً حمل بها الناس فى كل مكان وعدها الفرنجة من بدائع آداب العرب كما ترجموها إلى الألمانية والفرنسية (١) . كما أن فيها من مظاهر البطولة والشهامة وأحاديث العزة والكرامة ما يحببها إلى كل الطبقات (٢) . وقد طبعت عدّة طبعات فى القاهرة وبيروت كما مثلت فى مسارح الشرق والغرب وظهرت على الشاشة البيضاء بمصر فى فيلمين هما « عنتر وعبلة » و « مغامرات عنتر وعبلة » ويحرص قارئو قصة عنترة على إلقائها بأسلوب خطابى وأداء تمثيلىّ يحركون بهما عواطف الجماهير ويستثيرون مشاعرهم ويفتنون فى ذلك كثيراً .

أورد إسكندر أغا إبيكاريوس فى كتابه « منية النفس فى أشعار عنتر عبس» القصة التالية التى تدل على مبلغ شغف العامة بسيرة عنترة :

« بلغنا عن رجل من أهل حمص كان يحضر كل ليلة إلى حلقة القصاص يسمع فصلا من قصة عنترة ففى إحدى الليالى تأخر فى حانوته إلى ما بعد المغرب فحضر إلى هناك بدون عشاء وكان فى تلك الليلة سياق حرب عنترة مع كسرى فقرأ القصاص إلى أن وقع عنترة فى الأسر عند الفرس فحبسوه ووضعوا القيد فى رجله وهناك قطع الكلام وانفضت الناس فدخل على الرجل أمر عظيم واسوّدت الدنيا فى عينيه وذهب إلى بيته حزيناً كئيباً فقدمت له زوجته الطعام فرفس المائدة برجله فتكسرت الصحون وانصب ما فيها على فرش البيت وشتم المرأة شتماً قبيحاً فصادمته فى الكلام فضربها ضرباً شديداً وخرج يدور فى الأسواق وهو لا يقر له قرار ثم غلب عليه الحال فذهب إلى بيت القصاص فوجده نائماً فأيقظه وقال له قد وضعت الرجل فى السجن مقيداً وأتيت مستريح البال فأرجوك أن تكمل لى هذا السياق إلى أن تخرجه من السجن فإننى لا أقدر أن أنام ولا يطيب عيشى ما دام

(١) « الأعلام » للزركلى ج ٢ ص ٧٤٤ .

(٢) راجع ص ٩٨ من كتاب « أبو زيد الهلالى » لمحمد فهمى عبد اللطيف العدد ٤٧ من سلسلة « اقرأ » ففيها توضيح لمزايا أبطال العرب المشهورين ومقومات شهرتهم .

على هذه الحال وانظر ما تجمعه من الجمهور فى ليلتك فأنا أعطيك إياه الآن فأخذ القصاص الكتاب وقرأ له باقى السياق إلى أن أخرج عنترة من السجن فقال له: أقرّ الله عينيك وأراح بالك الآن طابت نفسى وزالت همومى فخذ هذه الدراهم ولك الفضل. ثم انصرف إلى بيته مسروراً وطلب الطعام واعتذر بأن القصاص وضع له القيد فى رجل عنترة وهى جاءته بالطعام ليأكل فكيف يمكنه أن يذوق طعاماً وعنترة محبوس مقيد؟ وقال: وأما الآن فقد ذهبت إلى بيت القصاص وقرأ لى الحديث إلى أن أخرجه من السجن والحمد لله فقد طابت نفسى فآتى ما عندك من الطعام واعذرينى عما فرط منى ».

وقد برزت قصة عنترة فى الجيل الذى ألفت فيه كثير من كتب الأسمار والخرافات وقد أحصى محمد بن إسحاق النديم الكتب التى ألفت فى الأسمار الخرافية بالعربية فبلغت زهاء ثمانين وضعف ذلك أو يزيد ما ترجم عن الفارسية والهندية واليونانية وما روى عن ملوك بابل وذلك حتى سنة ٣٧٧ هـ [١].

عنى بهذه القصة بعض المعاصرين ولعل من أبرزهم الأستاذ محمد فريد أبو حديد الذى حاول أن يظهرها — من جديد — فى ثوب شائق خلاب ورونق عصرى حديث فألف منها كتابه (أبا الفوارس) ثم كتابه الثانى الذى اختصره عن الأول (عنترة بن شداد) وقد صدر جزءاً من سلسلة اقرأ التى تنشرها دار المعارف بمصر وهو عمل منه مشكور [٢].

على أنه حبذا لو هذبت قصة عنترة — على نطاق واسع — وتجرد لها بعض الكتاب ليصوغوها فى أسلوب عصرى رصين ممتع تشوّق الأديب قراءته على أن يحذفوا منها فضول القول وما لا داعى لذكره وإيراده من أخبار لا تمت إلى الواقع

---

(١) « الفهرست » لابن النديم ص ٤٢٢ و٤٢٣ و٤٢٤ و٤٢٥ و٤٢٦ و٤٢٧ و٤٢٨. وراجع التوجيه الأدبى ص ١٧.

(٢) راجع كتابى « أبو الفوارس » و « عنترة بن شداد » رقم ٤٣ من سلسلة « اقرأ » لفريد أبو حديد.

بآصرة كما أنه ليس فى بقائها وسردها ما يرضى نزعات الخيال السامى . . إنهم بذلك يقدمون إلى أدبنا خدمة جليلة وإلى العربية فصلا بارعاً من ألوان الأدب القصصى تفخر به ذخراً قيماً ، وثروة أدبية طائلة (١) .

وإن كان النثر قد احتفى بعنترة وخلده ، وحفل بذكر بطولاته ومغامراته ، ووعى أشعاره وأخباره سواء فى القصص الشعبى أو فى أمهات كتب الأدب ، وخوالد السير وأيام العرب فإن الشعر كذلك قد احتفى أيما احتفاء بفارس بنى عبس وشاعرها المحلق فهذا شوقى يهدى العربية إحدى نفائسه الغر وروائعه الكبرى مسرحية (عنترة) الشعرية التى يقدم فيها لوناً شائقاً من ألوان القصص الشعرى الساحر الذى اشتهر به شوقى فى أواخر سنيه الحافلة مشيداً بمناقب فارس بنى عبس الذائد عن حماها ومصوراً قصة غرامه أبرع تصوير وأشجاه فى بيان عبقرى خلاب حسبه أنه بيان شوقى الشاعر الخالد (٢) .

---

(١) قرأت أخيراً فى مجلة « روز اليوسف » المصرية فصولا من حياة عنترة وكذلك أصدرت دار الكاتب العربى ببيروت أجزاء متتالية من سيرة عنترة وكلها محاولات طيبة وإن لم تأخذ بعد فى نظرى مظهر النضج الكامل لما ينبغى أن تكون عليه هذه القصة الطريفة حتى تكون فى متناول كافة طبقات القراء .

(٢) راجع مسرحية « عنترة » الشعرية لأحمد شوقى .

أغراضه وأساليبه الشعرية

إن الباحث فى الشعر الجاهلى كثيراً ما يصطدم بألوان من التعقيد والإبهام فى أساليب هذا الشعر فيقف حائراً يقصر به المدى عن استجلاء المعانى وتدبر الألفاظ ، وليس ذلك لطبيعة اللفظ نفسه وقد كانت الألفاظ الصعبة من مشخصات الأسلوب الجاهلى وكان الخروج عنها ومغادرتها إلى مأنوس اللفظ ومفهوم التعبير — آنذاك — مما يدل على نقص فى عربية القائل ومقدرته فى قوة الصوغ ومتانة السبك .. لا ليس الأمر عائداً إلى هذا فحسب ولكن ما يعسر على القارئ فهمه وما يضنيه إمعان البحث وإطالة المشقة والتروى فيه هو ارتكام المعانى وتشابكها ومزجها فيما لا يلائم الأغراض الشعرية ولا يتساوق معها وما ينفر المسامع عن متابعة بعضها ، وحرص الشاعر الجاهلى على أن يسلك فى القصيدة وغالباً ما تكون ملحمة مطولة أشتاتاً من الأفكار المتفرقة التى لا رابطة بينها ولا انسجام .

فالتحرّق للقيا الحبيبة — الوفية أو الخلية — والبكاء والاستبكاء على الأطلال الدائرة ووصف النوق والإبل والظباء والجياد والسلاح والحماسة البالغة للنسب والنفس والقبيلة والحكم المتراكمة مصوغاً كل ذلك فى قالب من التعبير يندر أن يتحرر من التداخل ، تلك كانت أصولا وقواعد لازمة حتمية للقصيدة التى ينشئها الشاعر العربى القديم [1] ولا معابة فى ذلك ولا تثريب لو أن الشاعر أفرد لهذه الموضوعات والأغراض المتباينة قصائد مختلفة ومنوعة ولكن الذى يعجب له

---

(١) انظر كتاب « الفن ومذاهبه فى الشعر العربى » للدكتور شوقى ضيف ص ٥ و ٦ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

القارئ هو حرص الشعراء ولا سيما الفحول منهم على أن تستهدف القصيدة الواحدة المفردة من قصائدهم كل هذه الألوان لا سيما إذا كان المجال مجال مفاخرة شعرية أو مناظرة أدبية كما يحدث ذلك عادة فى ميادين الأدب وأسواقه عندهم وكما هو الملاحظ فى بعض المعلقات[١] .

على أن مدرسة الشعر الجاهلى إن كانت تفرض تلك القيود فإن مما لا ريب فيه أن عنترة قد تحرر كثيراً من قيودها ولم يخلص لها كل الإخلاص إذ اتسم أكثر شعره بالرقة والوضوح مع بلاغة التعبير وجودة الأسلوب فلم يأخذ مأخذ الشعر الجاهلى الصميم فى ضخامة الألفاظ وخشونة المعانى ووعورة الوصف[٢] إلا فى أفانين قليلة وإذا كان ذلك يؤثر له كمحمدة ومأثرة الآن فإنه ربما عرضه لموجدة بعض النقاد الأقدمين ومؤاخذتهم فهذا محمد بن سلام الجمحى صاحب طبقات الشعراء يعتده من شعراء الطبقة السادسة[٣]. ويشير الأستاذ الزيات فى كتابه « تاريخ الأدب العربى »[٤] إلى أن شعراء الجاهلية قد قسموا فى اعتبار الأقدمين بحسب إجادتهم إلى ثلاث طبقات امرؤ القيس وزهير والنابغة وهم رجال الطبقة الأولى ، والأعشى ولبيد وطرفة وهم رجال الطبقة الثانية وعنترة ودريد ابن الصمة وأمية بن أبى الصلت وهم رجال الطبقة الثالثة . على أن هذا التقسيم لا يخلو من ضلال وتحكم لاختلاف الذوق وجهل القدماء بقواعد النقد وأصوله[٥]. ولأن فى شعراء الجاهلية من أعلام الشعر من لا يستهان بخطرهم أمثال علقمة بن علاثة وعمرو بن كلثوم والمرقش الأكبر وسويد بن أبى كاهل اليشكرى وقد عد عنترة فى « الأعلام » من شعراء الطبقة الأولى من أهل نجد[٦] .

---

(١) « خطرات فى الشعر والنقد » للمؤلف — مخطوط تحت الطبع .

(٢) « شعراء النصرانية » ج ١ ص ٨٨٢ .

(٣) « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام ص ١٢٨ .

(٤) « تاريخ الأدب العربى » للزيات — ط سادسة — ص ٣٧ و ٣٨ .

(٥) « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٣٨ .

(٦) « الأعلام ج ٢ ص ٧٤٤ .

وقد عنى عنترة بكافة أغراض الشعر العربى وأفانينه المعروفة فى زمانه كالفخر والحماسة والهجاء والرثاء والغزل والوصف والحنين والحكم وما إلى هذا من أفانين القول فكان فيها سباقاً رشيق التعبير بارع التصوير طريف المعانى .

على أن ملكة عنترة الشعرية لم تترعرع وتزدهر إلا حينما تخلص من ربقة العبودية وذل الرق حيث لم يروعنه فى حال رقه من الشعر جيد أو ردىء (١). ولكنه حينما نال حريته وملك أمر نفسه وشعر بمكانه وشخصيته جاشت نفسه بالشعر وتدفق به جزلاً عبقرياً يفيض عذوبة ورقة ولا سيما حين عمر قلبه بحب ابنة عمه عبلة وجاش فؤاده هياماً بها وغراماً فقد أتى من ثمة بالمعجب المطرب العميق من سحر المعانى ودقتها وأناقتها .

وروى أن من الأسباب التى حفزت عنترة على قول الشعر أن رجلاً من بنى عبس سابه وشاتمه فذكر سواده وسواد أمه وإخوته وعيره بذلك وبأنه لا يقول الشعر فقال له عنترة: « والله إن الناس ليترافدون بالطعمة فما حضرت مرفد الناس أنت ولا أبوك ولا جدك قط ، وإن الناس ليدعون فى الغارات فيعرفون بتسويمهم فما رأيناك فى خيل مغيرة فى أول الناس قط وإن اللبس (الاختلاط) ليكون بيننا فما حضرت أنت ولا أبوك ولاجدك خطة فيصل وإنما أنت فقع نبت بقرقر (٢). وإنى لأحتضر البأس وأوفى المغنم وأعف عن المسألة وأجود بما ملكت يدى وأفصل الخطة الصمعاء وأما الشعر فستعلم » فكان أول ما قال قصيدة :

هل غادر الشعراء من متردم

وهى أجود شعره وكانوا يسمونها المذهّبة (٣) .

---

(١) « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٤٨ .

(٢) فى المثل أذل من فقع بقرقر ، والفقع الرخومن الكمأة وهو أردؤها لأن الدواب تنجله بأرجلها. انظر « مجمع الأمثال » ١ — ٢٤٩ « واللسان » ١ — ١٢٦ .

(٣) « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٥ و ٢٠٦ وكانت المعلقات تسمى أيضاً المذهبات انظر « الخزانة » ١ — ٦١ وفيها إشارة لما فى المصدر السابق .

وقد أورد صاحب الأغانى أيضاً هذه القصة مع تغاير فى التعبير عما ورد آنفاً [١] .

ومعلقة عنترة هذه من خير قصائد الشعر الجاهلى ورغم أنه بدأها كما يبدأ شعراء المعلقات قصائدهم بذكر الأطلال أو الفراق عدا عمرو بن كلثوم — إذ يقول عنترة :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم
أعياك رسم الدار لم يتكلم حتى تكلم كالأصمّ الأعجم
يا دار عبلة بالجواء تكلمى وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى [٢]

رغم هذا إلا أن ما ورد فيها من المعانى الطريفة قمين بأن يضعها فى منزلة مميزة بالنسبة لسائر المعلقات المشهورة .

ويكفى أنه نظمها دفاعاً عن شاعريته وتأييداً لفصاحته وأنه قد قطع بها خصمه ونقض حكمه [٣] . وسنورد تحليلاً مستقلا لهذه المعلقة فيما بعد [٤] .

وفى العمدة لابن رشيق حكى الأصمعى عن ابن أبى طرفة قال : كفاك من الشعراء أربعة زهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب ، وعنترة إذا كلب [٥] .

وشعر عنترة ملىء بذكر الحرب ومسمياتها حتى قال فيه الأصمعى : « ذهب أمية بن أبى الصلت فى شعره بعامة ذكر الآخرة وعنترة بعامة ذكر الحرب » [٦] .

ولا غرابة فى ذلك فإن عنترة صاحب حرب وقتال وطعن ونزال ولولاما اشتهر

---

(١) « الأغانى » ج ٩ ص ٢٢٣ و ٢٢٤ .

(٢) « التوجيه الأدبى » ص ١٦١ — « بلوغ الأرب » ج ٢ ص ١٩٣ والجواء موضع شمال القصيم لا يزال معروفاً بهذا الاسم وراجع « المجانى » الأدبية ج ١ ص ١٥٣ .

(٣) « تاريخ الأدب العربى » للزيات ص ٤٩ « العقد الفريد » ج ٣ ص ٣٧٩ .

(٤) جعل التبريزى معلقة عنترة خامسة القصائد العشر راجع « شرح المعلقات » للتبريزى .

(٥) « العمدة » لابن رشيق تحقيق محيي الدين عبد الحميد ج ١ ص ٧٨ .

(٦) « بلوغ الأرب » ج ٢ ص ٢٥٣ .

عنه من ضروب الفروسية والبسالة لطمرت ذكره الأجيال ولغطى على بريق اسمه تقادم القرون والأزمان .

وعنترة فى غزله ورثائه واضح الأداء سهل التعبير وأما فى وصفه فوعر معقد إلا ما ندر . ولقد وفى عنترة رسالته الشعرية لقومه نافح عن قبيلته عبس بشعره كما حامى عنها بحسامه ورفع من منزلتها بين العرب فى مضمار الفن حينما نفحها بمعلقته المشهورة التى جاءت درّة مجلوة بين المعلقات الأخرى كما حبب إلى الفضائل فى شعره واستكره الرذائل .

أما ميراثه للشعر عامة فذخيرة لها حسابها وثروة فنية لها رصيدها فى ميزانه كشاعر من شعراء الرعيل الأول أضاف إلى العربية صفحات من الشعر الخالد ولا شك أن من له ملكة عنترة الشعرية فإنما هو شاعر مجيد مكثر ولو خلص إلينا جميع شعره على أصالته لكان لنا منه غنم أى غنم . على أنه بحسبنا الآن ما أفلت إلينا من أيدى الزمان وما وعاه الرواة ليقيم لعنترة فى ميدان الشعر عكاظاً ، وليسطر لاسمه فى سجل النابعين من شعراء الجاهلية مجداً باذخاً . وحسب ذاكرة التاريخ أنها حرصت على أن تقيم لهذا الشعر فى كل جيل مهرجاناً وأن تحفز الباحثين على دراسته ونقده وتشوقهم كل حين إلى الاحتفال به واستكناه طرائفه وذخائره (١) . وقد نقل هاملتن أشعار عنترة إلى الإنكليزية وطبعها بلندن فى مجلدين سنة ١٨٢٠ م ونقل ديفيك حماسياته إلى الفرنسية وطبعها بباريس ونجد لقصائد عنترة ترجمة بالألمانية طبعها منيل ببتافورم سنة ١٨١٦ م كما أن أشعاره مطبوعة فى ترجمات المعلقات الكبيرة إلى اللاتينية والإنكليزية والألمانية (٢) .

ولا ريب فى أن شعر عنترة الحماسى كان من حيث قوته وجهارته كأناشيد

---

(١) لم يحظ « ديوان عنترة » بما يستحقه من جهد الباحثين ، ولعلى متفرغ قريباً إن شاء الله لتحقيق الديوان تحقيقاً علمياً يتكافأ مع منزلته .

(٢) راجع كتاب « حضارة العرب » لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر فى فهرس المصادر ص ٧٥٠ مطبعة عيسى الحلبى .

الجيوش فى وقت الحرب – وقد ذكر ابن الأثير فى حوادث سنة ٧٧ أن عتاب ابن ورقاء سار فى أصحابه قبيل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم ثم قال أين القصاص ؟ فلم يجبه أحد فقال أين من يروى شعر عنترة؟ فلم يجبه أحد [١] .

ولقد أشرنا فى المختارات التى اختتمنا بها هذا الكتاب إلى ما أصاب شعر عنترة على أيدى النقلة والرواة من تصحيف وتحريف وزيادة وقسمنا المختارات قسمين : أحدهما ما تواترت روايته ومما لا يشك القارئ أنه شعر عنترة خالصاً له ومطبوعاً بطابعه مشخصاً فيه أسلوبه . والثانى ما لم تتواتر روايته وما داخل الريب فيه النفوس وخالجها الشك فى صحة ثبوت نسبته إلى عنترة .

---

(١) راجع ابن الأثير – وراجع « فى أصول الأدب » للزيات مطبعة الرسالة – ط ثانية – ص ٤٥ .

معلقته وتحليلها (١)

لقد سبق الكلام عن أسباب إنشاء عنترة معلقته وذلك فى معرض الحديث عن «أغراضه وأساليبه الشعرية» وأنها جاءت على أثر ملاحاته لرجل من قومه اتهمه بالتقصير فى قول الشعر وإذن فقد نظم عنترة هذه المعلقة دفاعاً عن فنه ودحضاً لحجة خصمه .

وسبب تسمية المعلقات ما ذكره ابن عبد ربه من أنها كانت القصائد السبع المتخيرة والمفضلة عند العرب فكتبوها بماء الذهب وعلقوها على أستار الكعبة ومثل ذلك ذكره ابن رشيق وصاحب خزانة الأدب وكانت هذه المعلقات تسمى أيضاً المذهبات (٢) .

وقيل إن سبب تسمية المعلقات أن العرب كانوا يتناشدون الأشعار والقصائد فى أسواق الشعر المعروفة فإذا استحسن الملك قصيدة قال: علقوا لنا هذه، فتكتب وتعلق فى خزانته وربما كان الملك المقصود هو النعمان بن المنذر وربما كان أى ملك من الملوك الذين يعنون بالشعر .

إذن فعنترة شاعر فحل منذ قديم لا يمترى فى شعره ولا يشك فى لقانته

---

(١) راجع « الأغانى » ج ٩ ص ٢٢ « وجمهرة العرب» و « شعراء النصرانية » و «طبقات الشعراء »و« ديوان عنترة » و «وتاريخ الأدب العربى للسباعى بيومى» و «العقد الفريد» و «شرح المعلقات» للتبريزى .

(٢) راجع « خزانة الأدب » جزء أول ص ٦١ – « والعمدة » لابن رشيق ج ١ ص ٧٨ تحقيق محيي الدين عبد الحميد – ط حجازى .

– « تاريخ الأدب العربى » للسباعى بيومى ج ١ ص ١٥٥ و١٥٦ .

– « تاريخ العرب » للدكتور فيليب حتى ترجمة محمد مبروك نافع ص ١١١ ج ١ .

– « المجانى الأدبية » عن « مجانى الأدب » ، لويس شيخو اليسوعى – تحقيق فؤاد البستانى ج ١ ص ١٥٢ و١٥٣ .

وفصاحته بعد أن اعترفت العرب بآثاره وخلدتها كأحسن ما تخلد الآثار الرفيعة .

فالمعلقات هي خير أشعار العرب في العصر الجاهلي وخلاصته منظومهم لما افتنوا فيها وأبدعوا من ضروب القول ومستحدثات المعاني ومن تلون أغراض الشعر وقوة الأسلوب ونضارته وجودة الوصف والتركيب . هذا مجمل القول في المعلقات .

أما معلقة عنترة فقد شملت ألواناً وأفانين ففيها لوعة الفراق وذكرى الأطلال وفيها غزله بعبلة وهيامه بها ووصفه للناقة والاعتزاز بخلائقه وكرمه وخمرياته ثم ذكر غزواته وحروبه فهي مستوعبة آماله وأمانيه مصورة حاضره وماضيه ونبدأ الآن في تحليل المعلقة .

يبدأ عنترة معلقته بأسلوب فيه نوع من التواضع الأدبي فهو يتساءل في مطلعها تساؤل المستنكر :

هل غادر الشعراء من متردّم ؟

فكأنه يقول : ماذا أقول وهل ترك الشعراء قبلي مقالة لقائل ، إنهم قد ملأوا علينا شعاب الشعر حتى لا نكاد نجد مسالكنا فيه ولا نتلمس سبلنا في أوديته ورحابه ؟ ثم يمضي في قصيده :

هل غادر الشعراء من متردّم ... أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟
يا دار عبلة بالجواء تكلمي ... وعمى صباحاً دار عبلة واسلمى
فوقفتُ فيها ناقتي وكأنها ... فدَن لأقضيَ حاجة المتلوّم (١)
وتحلّ عبلة بالجوّاء وأهلنا ... بالحزن فالصمان فالمتثلم (٢)
حييت من عهد تقادم عهده ... أقوى وأقفر بعد أم الهيثم
حلت بأرض الزائرين فأصبحت ... عسراً عليّ طلاّبك ابنة مخرَم

---

(١) الفدن : القصر . المتلوم ، المترقب .
(٢) أمكنة عند العرب .

علقتها عرضاً وأقتل قومها ؟ زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم
ولقد نزلت فلا تظنى غيره منى بمنزلة المحبّ المكرّم (١)

إنها هنيهات ذكرى وقوف بالأطلال وتفرس فى ملامح الديار وتحية لها كأنها كائنات حية شاخصة ، واستنطاق واستحثاث على الكلام واستيحاء لما تذكيه فى نفسه من ضرام وتساؤل ضمنى فى النفس عن هذه التى علقها عرضاً أيعلقها ثم يقتل قومها كلا إنه لن يفعل ذلك إن إباءه وشممه يذودانه عن قومها . أجل فما هذا إلا « زعماً لعمر أبيك ليس بمزعم » فليس هذا بفعل مثله وليست تلك سجاياه وشيم .

كيف المزار وقد تربع أهلها بعنيزتين وأهلنا بالغيلم (٢)
إن كنت أزمعت الفراق فأنما زمت ركابكم بليل مظلم
ما راعنى إلا حمولة أهلها وسط الديار تسف حب الخمخم (٣)
فيها اثنتان وأربعون حلوبة سوداً كخافية الغراب الأسحم (٤)

يا لقلب عنترة لقد راعه الفراق وهو يرى الركائب والنجائب تزم والأحمال توضع على ظهور النوق والإبل والقوم سفر لا يستجيبون له ولا يحفلون حبه وغرامه.

وتا الله ما أقسى سفر الفراق على قلوب المحبين وما آلمه لعواطفهم ومشاعرهم فما لهم صبر على بلائه ولا طاقة لاحتماله !

ثم يمضى عنترة واصفاً محبوبته « عبلة » هذا الوصف الرقيق الشائق الذى يستهدف كثيراً من محاسنها :

---

(١) نزلت : حللت من نفسى منزلة المحب المكرم .
(٢) أمكنة عند العرب .
(٣) الحمولة : الإبل . تسف : تأكل . الخمخم : بقلة يقال لها حب أسود إذا أكلته الغنم قلت ألبانها وتغيرت .
(٤) الحلوبة : الناقة .

دار لآنسة غضيض طرْفها — طوعُ العناق لذيذةُ المتبسم
إذ تستبيك بذى غروب واضح — عذب مقبله لذيذُ المطعم (١)
وكأن فارة تاجــر بقسيمة — سبقت عوارضها إليك من الفم (٢)
أو روضةً أنفاً تضمن نبتهــا — غيثٌ قليل الدّمن ليس بمعلم (٣)
جادت عليه كل بكر حرة — فتركن كل قرارة كالدرهم (٤)
سحــاً وتسكابا فــكل عشية — يجرى عليها الماء لم يتصرّم

تلك الخود غضيضة الطرْف عذبة المقبل والمبتسم ذات الثغر المعطر من هى؟ إنها عند الشاعر روضة أنف تنفحه بأريجها وتستبيه برونق ثمرها وزهرها ونبتها وعرارها . . روضة باكرها السحاب وجادها التسكاب !

ثم يبتكر عنترة فى الوصف فيأتى بهذه الصورة المعجبة وإبداعه فيها مما لم يسبق إليه .

وخلا الذباب بهــا فليس ببارح — غرداً كفعل الشارب المترنم (٥)
هزجاً يحــكّ ذراعه بذراعــه — فعل المكب على الزّناد الأجذَم (٦)

صورة شاخصة معبرة (٧) .

ثم يتصور عبلة وقد لفها القمر بضوئه أو ناغمها الصبح بأغاريده منعمة

---

(١) غروب : حد ، وغروب الأسنان : حدها .
(٢) الفأرة : وعاء المسك يشبه بها طيب رائحة الفم .
(٣) الدمن : المطر الخفيف . المعلم : ذو العلامة .
(٤) البكر : السحابة فى أول الربيع .
(٥) الذباب : النحل يقع على الأزهار .
(٦) الأجذم : الزناد القصير — راجع « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ٢٠٧ — « الرلباب الأداب » ص ١٨٣ — « البيان والتبيين » تحقية حسن السندوبى ج ٣ ص ١٩٥ المطبعة حمانية .
(٧) انظر كتاب « بين البحر والصحراء » لشفيق جبرى العدد ٤٩ من سلسلة « اقرأ » ص ١٢ و ١٣ ففيه تحليل موفق لهذه الأبيات .

مطيبة فى فراشها الوثير فى حين أنه مقتعد غارب فرسه حشيته السرج الناتئ ذائد عن قومه وعشيرته :

تمسى وتصبح فوق ظهر حشية وأبيت فوق سراة أدْهم ملجم (١)
وحشيتى سرج على عبل الشوى نهد مراكله نبيل المحْزم (٢)

ثم يصف الناقة وكأنه يهدهدها مستحثاً إياها لكى تبلغ به دار محبوبته :

هل تبلغنى دارها شدنية لعنت بمجروم الشراب مصرّم (٣)
خطارة غب السرى زيّافة تطس الأكام بذات خفّ ميثم (٤)
وكأنما أقصَى الأكام عشيةً بقريب بين المنسمين مصلم (٥)
تأوى له قلص النعامَ كما أوت حزِقٌ يمانية لأعجم طمطم (٦)
يتبعن قلة رأسه وكأنه حرَجٌ على نعش لهن مخيم (٧)
صَعَلٌ يعود بذى العشيرة بيضه كالعبد ذى الفرو الطويل الأصلم

ويستمرّ فى وصف الناقة ذاكراً مزاياها وسقياها :

شربت بماء الدحر ضين فأصبحت زوراء تنفر عن حياض الدّيْلم (٨)
وكأنما ينأى بجانب دفها الـ وحشى من هزج العشىّ مؤوم (٩)

---

(١) الحشية : الفراش المحشو .
(٢) الشوى : القوائم . المركل : حيث تبلغ رجل الراكب من بطن الجواد .
(٣) الشدنية : الناقة .
(٤) خطارة : تخطر بذنبها . تطس : من الوطيس ، مطرد الخيل . المثيم : من وثم يثم ذا إعدا وخف .
(٥) المصلم : مقطوع الأذنين .
(٦) الحرق : الجماعات . الطمطم : الذى لا يفهم .
(٧) الحرج : سراير المريض أو البيت .
(٨) الدحرضان : اسم مورد من موارد الماء (وفى تهذيب الصحاح نشر محمد سرور الصبان وتحقيق أحمد عبد الغفور عطار وعبد السلام هارون : ماءان راجع ص ٤٣٣ ج ١)، زوراء : عوجاء مائلة من النشاط ، الديلم الأعداء ، وقيل الجماعة ، وقيل الظلمة ، وقيل الداهية .
(٩) الوحشى : الجانب الأيمن من البهائم ، المؤوم : عظيم الرأس .

هر جنيب كلما عطفت لــه غضبى اتقاها باليدين وبالفم
أبقى لها طول السفار مقرمــدا سنــداً ومثل دعائم المتخيّم (١)
برَكت على ماء الرداع كأنمـــا بركت على قصب أهش مهضم (٢)
وكأن رِبـــًّا أو كحيلاً معقداً حشّ الوقود به جوانب قمقم (٣)
ينبـــاع من ذفرى غضوب جسرة زيافة مثـــل الفنيق المُكْدَم (٤)

معان شائقة لايجب أن تروعك فيها وعورة اللفظ فالورد دائماً محفوف بالشوك!

وإذ ينتهى عنترة من وصف الناقة بعد أن أطال فيه وجود ينثنى إلى أغراض أخرى تلامس واقع حياته وأسلوب معيشته من ألوان البطولة والفتوة ومجالس اللهو والشراب والتغزل بمحبوبته الساحرة فيقول مخاطباً إياها :

إن تغدفى دونى القناع فإنـــنى طب بأخذ الفارس المستلئم (٥)

ولا يكلف هذه المحبوبة المفتان أن تلفق فيه الوصف أو تتزيد فى القول فهو من أمجاده وخلاله فى موكب ليس عليه زيادة لمتزيد ويكفيها إذا شاءت أن تفخر به بما تعلم من مواهبه وصفاته وعظم شخصيته وبطولته :

أثـــنى علىّ بما علمت فإنـــنى سهل مخالطتى إذا لم أظـــلم
فإذا ظلمت فـــإن ظلمى باسل مر مذاقـــته كطعم العـــلقم (٦)
ولقد شربت من المدامة بعد ما ركد الهواجر بالمشوف المعلم (٧)

---

(١) المقرمد : المبنى بالآجر ، أى إن سنامها تماسك وتصلب كأنما بنى بالآجر . المخيم : الذى يتخذ خيمة .

(٢) الرداع : مورد لبنى سعد . الأجش : الذى فيه خشونة . المهضم : المخرم وقيل المكسر .

(٣) الرب : ما تبقى من عصارة التمر . الكحيل : القطران .

(٤) ينباع : ينفعل ، وروى ينهم بمعنى يذوب . الزفران : العظمان الناتئان خلف الأذين . الفنيق : الفحل .

(٥) تغدفى : ترخى قناعك على وجهك . طب : خبير . المستلئم : الذى لبس اللأمة .

(٦) باسل : كريه .

(٧) الهواجر : نصف النهار . المشوف : الدينار المجلو . المعلم : الذى فيه كتابة .

بزجاجة صفراء ذات أسرة قرنتْ بأزهر فى الشمال مفدم [١]

ثم هو صاحب خمر يحبها ويشربها — كعادة أهل الجاهلية — ولكنه يقف عند الحد الذى لا يضيع حجاه ولا يفقده صوابه، يستهلك ماله فى الشراب ولكنه يعز عرضه فالشرف المذخور أثمن ما يحرص على صيانته أما المال فلا ضَيرَ من بذله لكريم مثله :

فإذا شربت فإننى مستهلك مالى وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائلى وتكرمى [٢]

كما أنه إذا جندل الفوارس ترك الفرائص مصفرة مرتعدة مما يلاقيه عدوه من شدّة وما يعانيه من مرارة :

وحليل غانية تركت مجدلاً تمكو فريصته كشدق الأعلم [٣]
سبقت يداى له بمارن طعنة ورشاش نافذة كلوْن العندَم [٤]

ثم يهتف بعبلة صائحاً وكأنه يشعر بأنه قد فتر إصغاؤها له وتحمسها لقوله :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمى
إذ لا أزال على رحالة سابح نهد تعاوره الكماةُ مكلم [٥]
طوراً يجرد للطعان وتارةً يأوى إلى حصد القسى عرمرم [٦]

فإنها لو سألت لعلمت ما لم تكن تعلم ولعرفت أنه يغشى المعارك غشيان

(١) الأسرة : الخطوط . قرنت : شدت بكأس أخرى . أزهر : أبرق ، من فضة . المفدم : الذى عليه الفدام ، وهو خرقة يغطى بها ، وقيل الفدام المصفى .

(٢) راجع « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ج ١ ص ١٤٨ .

(٣) تمكو : تصفر ، الفريصة : الموضع الذى يرعد من الدابة أو الإنسان هنيهة الخوف .

(٤) راجع « البيان والتبيين » ج ١ ص ١٢٣ « وشعراء النصرانية » ج ١ ص ٨١٢ ، العندم : صبغ أحمر .

(٥) الرحالة : السرج الذى يحمل من جيود الشياه بأصوافها . السابح : الذى يدحو بيديه دحواً ، وهو كناية عن السرعة الشديدة . النهد : مرتفع الجنبين . تعاوره : تداوله . المكلم : المجروح .

(٦) الحصد : الكثير وقيل المحكم . القسى : جمع قوس . العرمرم : فى اللسان العرمرم الشديد ، وقيل الكثير .

الليث الغضنفر ولكنه يعفّ عن المغانم والمكاسب فهمه أبعد من توافه الحياة :

يخبرْك من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعفّ عند المغنم

ثم هو يتصيد من الرجال أشدّهم بأساً وأقواهم مراساً من تحاماه الفرسان وكره الأبطال نزاله :

ومدجج كره الكماة نزاله ... لا ممعن هرباً ولا مستسلم [١]
جادت يداى له بعاجل طعنة ... بمثقف صدق الكعوب مقوم [٢]
برحيبة الفرغين يهدى جرسُها ... بالليل معتس الذئاب الضرم [٣]
فشككتُ بالرمح الأصم ثيابه ... ليس الكريم على القنا بمحرم [٤]
فتركته جزَر السباع ينشنه ... ما بين قلة رأسه والمعصم [٥]

ثم يستمر فى وصف طعانه للفرسان وسيطرته البارعة فى مواقف النزال والعراك :

ومشك سابغة هتكت فروجها ... بالسيف عن حامى الحقيقة معلم [٦]
ربذ يداه بالقداح إذا شتا ... هناك غايات الشجار ملوم [٧]

وأن مبارزه ليفغر فاه دهشة وخوفاً وترقباً لما سوف يناله من برازه. إنها نماذج بشرية يصورّها عنترة أصدق تصوير :

لما رآنى قد نزلت أريدُهُ ... أبدَى نواجذه لغير تبسم

---

(١) لا ممعن هرباً : لا يفر فراراً .

(٢) المثقف : المقوم . الكعوب : عقد الرمح وكل ما بين أنبوبتين .

(٣) ما بين كل من عرقوبين : فرغ . المعتس : المتبق ، اعتس الشىء : طلبه .

(٤) ليس الكريم : أى أن الكريم لا يموت فى فراشه ، وإنما يموت فى مواقع الحرب ؛ وثيابه كناية عن قلبه .

(٥) الجزرة : الشاة والناقة . ينشنه : يتغاولنه بالأكل . القلة : أعلا الشىء .

(٦) المشك : الدرع . فروجها : خروقها منافذها .

(٧) الربذ : السريع الضرب بالقداح الحاذق فى لعبها . إذا شتا : لأن الجدب أشد ما يصيب العرب فى الشتاء . الشجار ، هنا : الخمارون . الملوم : الذى يكثر لوامه على إنفاق ماله .

فطعنتـــه بالرمح ثم علوتـــه ... بمهند صافى الحديدة مخـــذم (١)
عهدى بـــه مدّ النهـــار كأنما ... خضب البنان ورأسه بالعظلم (٢)
بطـــل كأن ثيابه فى سرحـــة ... يحذى نعال السبت ليس بتوأم (٣)

وهذه صورة فنية لا يفوته أن يسجل إشراقها وهو غارق فى حومة الوغى فهو يتذكر فى بريق الرماح عند اشتجارها ولمعان السيوف عند اشتباكها ثغر محبوبته العذب الشنيب فيود لو أهوى على السيوف مقبلا رغم أنها تنوشه وتدميه :

ولقـــد ذكرتك والرمـــاح نواهل ... منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددتُ تقبيـــل السيوف لأنهـــا ... لمعت كبارق ثغرك المتبسم (٤)

ويؤوب إلى التغزل فيقول :

يا شـــاة ما قنص لمن حلت له ... حرمت على وليتها لم تحـــرم (٥)

ثم أرسل يتجسس :

فبعثت جاريتى فقلت لها أذهبى ... فتجسسى أخبـــارها لى واعلمى
قالت رأيت من الأعادى غرة ... والشاة ممكنة لمن هو مرتمى (٦)
وكأنما التفتت بجيـــد جداية ... رشأ من الغـــزلان حرٍّ أرثم (٧)

ويرسل حكمة متمثلة فى منكر نعمة له :

---

(١) المخذم : من الخذم وهو القطع .

(٢) مد النهار : أوله . خضب : طلى . العظلم : شجر أحمر ، وقيل الوسمة ، والأول هو المراد .

(٣) السرحة : شجرة لا ثمرة لها ، نعال السبت : المدبوغة بالقرظ وهى مما كان يلبسه الملوك والأقيال . التوأم : الذى يولد معه آخر فيكون ضعيفاً .

(٤) بارق : بريق أسنانك .

(٥) الشاة : هنا المرأة ، وقيل النعجة .

(٦) الغرة : الغفلة . مرتمى : رامى السهام ، ومنه قولهم خرج يرتمى إذا يرمى بالقنص .

(٧) الجداية : الظبية . الحرار : البيض . الأرثم : الذى فى شفته العليا بياض أو سواد .

نبئتُ عمراً غــير شاكر نعمتى والــكفر مخبثة لنفس المنعم (١)

ويتذكر وصاة عمه له ضحى فيكـّر غير مذمم ويفعل بالأعداء الأفاعيل إنه يتقى الضربات وينقض عليهم إنقضاض الليث الهصور مهما تكاثروا عليه وتألب جمعهم فهو أمامهم شيطان مريد وبطل عنيد وقرم لا يباريه نديد :

ولقد حفظت وصاة عمى بالضحى إذ تقلص الشفتان عن وضح الفم (٢)
فى حرمة الموت التى لا تشتــكى غمراتها الأبطال غــير تغمغم (٣)

وهو دائماً قلب الهجوم وطليعته ومقدمة الفرسان يتقى به بأس العدو :

إذ يتقون بى الأسنة لم أخــم عنها ولكنى تضايق مقــدمى (٤)
لمــا سمعت نداء مرة قد عــلا وابنى ربيعة فى الغبار الأقتم (٥)
ومحلم يسعون تحت لــوائهم والموت تحت لواء آل محلم (٦)
أيقنت أن سيــكون عند لقائهم ضرْبٌ يطير عن الفراخ الجثم (٧)
لمــا رأيت القوم أقبــل جمعهم يتذامرون كررت غــير مذمم (٨)

كما أنه فى المعمعة موضع النداء وقطب الرحى :

يدعــون عنتر والرمــاح كأنها أشطان بئر فى لبــان الأدهم (٩)

وإنه ليشعر بما كبدَ جواده من هوْل ومشقة ولكن ما من الجلاد بد رغم ما

---

(١) المخبثة : الأمر الخبيث.
(٢) تقلص : تجف .
(٣) التغمغم : صوت تسمعه ولا تفهمه .
(٤) لم أخم : لم أجبن .
(٥) الأقتم : الأسود .
(٦) محلم بن عوف الشيبانى الذى يضرب به المثل فى الوفاء والعزة يق ل (لا حر بوادى عوف) .
(٧) المعنى أن الضرب يطير هام الفارس وما حوله ، والعرب تعبر عن الرأس بالفرخ والعصفور.
(٨) يتذامرون يحض بعضهم بعضاً على القتال .
(٩) الأشطان : حبال البئر . اللبان : الصدر .

أصاب الجواد فى استماتة راكبه من عذاب وتعرض لشاك الرماح وطعنها حتى لكأنه اغتسل بالدماء من إثخانه بالجراح :

ما زلت أرميهم بغــرة وجهــه ولبانه حتى تسربَــل بالدّم (١)
فازورّ من وقــع القنــا بلبانه وشــكا إلىّ بعبرة وتحمحم (٢)
لو كان يدرى ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الــكلام مكلمى
والخيــل تقتحم الغبــار عوابساً من بين شيظمة وأجــرد شيظم (٣)

على أنه يصغى لهتاف الفوارس باسمه جذلاً نشوان لأنه يعلم أنهم لا يدعون إلا ضيغماً يعرف كيف يقودهم إلى النصر ويجنبهم معرة الهزيمة ومواطن الإخفاق والخيبة :

ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدم (٤)
ذلل ركابى حيث شئت مشايعى قلــبى وأحفزه بأمر مــبرم (٥)

وهو لا يحذر الموت إلا أن يوافيه قبل أن يثأر من أعدائه وممن ينالونه بألسنتهم ومن هؤلاء الأعداء ابنا ضمضم المريان ولكن من هما ابنا ضمضم هذان اللذان نذرا دمه يا لهما من مسكينين ألم يعلما أنه قد قتل أباهما ونكل به وأذاقه كأس المنون فأين كانا هما ؟ إن عليهما أن ينكرا أنه إذ قتل أباهما فكأنه أراق دمهما وإلى أن يلقاهما فإنه ليهيب بهما إلى النزال هاتفاً :

---

(١) ويروى بثغرة نحره .
(٢) التحمحم : صوت مقطع دون الصهيل .
(٣) الشيظم والأجرد : قصير الشعر .
(٤) ويك : قال بعض النحويين معناها ويحك ! يعنى يرحمك الله .
(٥) الذلول من الإبل : سهلة القياد .

ولقد خشيت بأن أموت ولم تكن للحرب دائرة على ابنى ضمضم [١]
الشاتمى عرضى ولم أشتمهما والناذرين إذا لم القهما دمى
إن يفعلا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم [٢]

وهكذا نأتى على ختام هذه المعلقة الفريدة بعد أن استمتعنا بروائع ما فيها من ديباجة مشرقة وأسلوب رائع خلاّب ومعان شفافة مسلسلة وظلال من حماسة عنترة وشدته و بأسه .

نماذج من فنه ومختارات من شعره

لقد تقدّم بنا القول أن أكثر شعر عنترة قد أفسده الرّواة بالتحريف والتزيد ونسبة ما لم يقله إليه مما يتفق والأغراض التى تناولها ، وقد اعتمدنا فى هذه المختارات على ما نشر من شعره فى ديوانه ، وعلى كتاب شعراء النصرانية وهو مما اعتمدت فيه رواية الأصمعى وأبى عمرو بن العلاء والمفضل الضبى وأبى سعيد السكرى مما يكاد يكون مقطوعاً به أنه من شعر عنترة ، وجعلنا ذلك قسمين :

الأول : ما أشير إليه من الشعر المتواتر الرواية وهو القسم الأول من المختارات.

الثانى : ما ورد فى بعض الكتب كالصحاح للجوهرى وشرح شواهد مغنى اللبيب للسيوطى وشرح المفضليات للمرزوقى وفى نضرة الإغريض لأبى على مظفر ابن الفضل الحسينى وفى غير ذلك من الشروح والدواوين مما ذكر فى الديوان وكتاب شعراء النصرانية أنه لم تتواتر روايته ولم تعتمد وإن يكن فيه من ألوان الفن ما يحبب قراءته وما هو معروف لدى العامة بأنه من شعر عنترة .

---

(١) الدائرة : ما ينزل من البلوى ، وابنا ضمضم : هما هرم وحصين ابنا ضمضم المريان قتلهما و رد بن حابس العبسى ، وكان عنترة قتل أباهما ضمضماً فكانا يتوعدانه .

(٢) القشعم : الكبير من النسور .

ماتواترت روايته من شعر عنترة

اعتزازه *

« غزت بنو عبس بنى تميم وعليهم قيس بن زهير فانهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم ؛ فوقف لهم عنترة ولحقتهم كبكبة من الخيل ، فحامى عنترة عن الناس فلم يصب مدبر ، وكان قيس بن زهير سيدهم فساءه ما صنع عنترة يومئذ فقال حين رجع : والله ما حمى الناس إلا ابن السوداء . وكان قيس أكولاً ، فبلغ عنترة ما قال ، فقال : يعرّض به فى هذه القصيدة »

(أبو عمرو الشيبانى)

طالَ الثواء على رسوم المنزل ... بين اللكياك وبين ذات الحرمل (١)

فوقفت فى عرصاتها متحيراً ... اسل الديار كفعل من لم يذهل (٢)

لعبت بها الأنواء بعد أنيسها ... والرامسات وكل جون مسبل (٣)

أفمن بكاء حمامة فى أيكة ... ذرفت دموعك فوق ظهر المحمل (٤)

كالدر أو فضض الجمان تقطعت ... منه عقائد سلكه لم يوصل (٥)

(*) راجع « العقد الثمين » فى الشعراء الجاهليين » ص ٣١ و٣٢ طبع مدينة عريفرز ولد سنة ١٨٦٩ .

(١) الثواء : الأقامة والمكث . واللكيك وذات الحرمل : موضعان .

(٢) عرصات : جمع عرصة ، وهى كل بقعة بين الدور واسعة ليس فيها بناء .

(٣) الأنواء : جمع نوء وهو النجم مال للغروب ، والعرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إليها . والأنيس : القاطن، يريد أهلها الذين أنسوا بها . والرامسات : الرياح تحمل التراب من بلد إلى آخر . والجون : الأسود المشرب حمرة ، يريد سحاباً متكاثفاً . ومسبل : ممطر .

(٤) الأيكة : واحد الأيك ، وهو الشجر الملتف الكثير . والمحمل (كمجلس) : شقان على البعير يحمل فيهما العديلان .

(٥) الجمان : اللؤلؤمن فضة ، الواحدة جمانة . وفضضه : ما تفتت منه . . .

لما سمعت دعاء مرة إذ دعا … ودعاء عبس فى الوغى ومحلل (١)
ناديت عبساً فاستجابوا بالقنا … وبكل أبيض صارم لم ينحل (٢)
حتى استباحوا آل عوف عنوة … بالمشرفى وبالوشيج الذبل (٣)
إنى امرؤ من خير عبس منصبا … شطرى وأحمى سائرى بالمنصل (٤)
إن يلحقوا أكرر وإن يستلحموا … أسدد وإن يلفوا بضنك أنزل (٥)
حين النزول يكون غاية مثلنا … ويفر كل مضلل مستوهل (٦)
ولقد أبيت على الطوى وأظله … حتى أنال به كريم المأكل (٧)
وإذا الكتيبة أحجمت وتلاحظت … ألفيت خيراً من معم مخول (٨)
والخيل تعلم والفوارس أننى … فرقت جمعهم بطعنة فيصل (٩)
إذ لا أبادر فى المضيق فوارسى … أولا أوكل بالرعيل الأول ! (١٠)
ولقد غدوت أمام راية غالب … يوم الهياج وما غدوت بأعزل

---

(١) محلل بكسر اللام وفتحها .

(٢) القنا : الرماح . والسيف الأبيض : المصقول . ولم ينحل : لم يشحذ .

(٣) المشرفى : السيف ، نسبة إلى مشارف الشام . والوشيج : شجر الرماح . والذبل : الضامرة .

(٤) المنصب : الأصل والحسب . والمنصل : السيف . يقول : شطرى شريف من قبل أبى ، فإذا حاربت حميت شطرى الآخر من قبل أمى .

(٥) إن يلحقوا : أى إن لحقهم العدو . وأنزل ، أى عند التحام الخيل .

(٦) مستوهل : ضعيف يفزع .

(٧) وحكى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى قال : أنشد النبى صلى الله عليه وسلم قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله … حتى أنال به كريم المأكل

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « ما وصف لى أعرابى قط فأحببت أن أراه إلا عنترة » كما سبق القول آنفاً .

(٨) تلاحظت : من اللحظ وهو النظر . وهذه حال المتردد فى أمره المفكر فيما يقدم عليه . والمعم المخول : الكريم الآباء والأمهات .

(٩) طعنة فيصل : أى بطعنة رجل فصل بين القوم بطعنته ففرقهم وفصل بينهم .

(١٠) الرعيل : القطعة من الخيل القليلة . ولا أوكل : أى لا أكون من يهرب ولعل الصحيح أولا أو كل فى أوائل الخيل .

بكرت تخوفني الحتوف كأنني | أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل(١)
فأجبتها أن المنية منهل | لابد أن أسقى بكأس المنهل(٢)
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمي | أني امرؤ سأموت إن لم أقتل(٣)
إن المنية لو تمثل مثلت | مثلي إذا نزلوا بضنك المنزل
والخيل ساهمة الوجوه كأنما | تسقى فوارسها نقيع الحنظل
وإذا حملت على الكريهة لم أقل | بعد الكريهة ليتني لم أفعل *

عبلة تعجب ! *

عجبت عبيلة من فتى متبذل | عاري الأشاجع شاحب كالمنصل(٤)
شعث المفارق منهج سرباله | لم يدهن حولاً ولم يترجل(٥)
لا يكتسي إلا الحديد إذا اكتسى | وكذاك كل مغاور مستبسل(٦)
قد طالما لبس الحديد فإنما | صدأ الحديد بجلده لم يغسل
فتضاحكت عجباً وقالت يا فتى | لا خير فيك كأنها لم تحفل
فعجبت منها حين زلت عينها | عن ماجد طلق اليدين شمردل(٧)

(١) بكرت : أي عاذلته .

(٢) في اللسان : « مني » ، « بذاك » مكان « بكأس » .

(٣) اقني : الزمي ، وقد أنشد البيت في اللسان « قني » : « أقني » . ثم قيل فيه : « قال ابن بري صوابه : فاقني حياءك » .

(*) روى هذه القصيدة الأصمعي راجع الديوان المخطوط ص (١٢٧ – ١٢٨) نسخة دار الكتب المصرية .

(*) « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهلين » ط مدينة غريفز ولد سنة ١٨٦٩ ص ٣٣ و ٣٤ .

(٤) الأشاجع : جمع أشجع وهو في اليد والرجل العصب الممدود فوق السلامى بين الرسغ إلى أصول الأصابع ، المنصل : السيف .

(٥) المنهج : البالي .

(٦) المستبسل : المقدام .

(٧) شمردل : طويل .

لا تصرميني يا عبيل وراجعي ... فيّ البصيرة نظرة المتأمل
فلرب أملح منك دلاً فاعلمي ... وأقرّ في الدنيا لعين المجتلي
وصلت حبالي بالذي أنا أهله ... من ودها وأنا رخيّ المطول[١]
يا عبل كم من غمرة باشرتها ... بالنفس ما كادت لعمرك تنجلي
فيها لوامع لو شهدت زهاءها ... لسلوت بعد تخضب وتكحل
إما تريني قد نحلت ومن يكن ... غرضاً لأطراف الأسنة ينحل *
ولرب مشعلة وزعت رعالها ... بمقلص نهد المراكل هيكل[٢]
وكأن متنيه إذا جرّدته ... ونزعن عنه الجل متنا أيل[٣]
وله حوافر موثق تركيبها ... صمّ النسور كأنها من جندل[٤]
فعليه أقتحم الهياج تقحماً ... فيها وأنقضّ انقضاض الأجدل !

---

(١) المطول : رسن الدابة .

(٢) المشعلة : بفتح العين يعني خيلا ، والمشعلة بكسر العين : الغارة ، المراكل من الدابة حيث تعمل قدما الراكب ، المقلص : الفرس الطويل القوائم . الهيكل : الطويل .

(٣) أيل : وعل .

(٤) النسور : جمع نسر بالفتح ، وهي لحمة صلبة في باطن الحافر .

(*) في رواية الأصمعي توجد هذه الأبيات بعد هذا البيت :

ولرب أبلج مثل بعلك بادن ... ضخم على ظهر الجواد مهيل
غادرته متعفراً أوصاله ... والقوم بين مجرح ومجندل
فيهم أخو ثقة يضارب تارة ... بالمشرفي وتارة لم ينزل
ورماحنا تكف النجيع صدورها ... وسيوفنا . . . . . .فتختلي

والقصيدة في رواية الأصمعي واحد وثلاثين بيتاً . راجع الديوان المخطوط (ص ١٢٨ و ١٢٩) نسخة دار الكتب المصرية .

يوم الفروق (١)

« وكان بنو عبس خرجوا من بنى ذبيان فانطلقوا إلى بنى سعد بن زيد مناة ابن تميم فحالفوهم وأقاموا عندهم، وكانت لهم خيل عتاق وإبل كرام ، فرغبت بنو سعد فيها فهموا أن يغدروا بهم ؛ ففطن لذلك قيس بن زهير وظنه ظنًّا وكان رجلاً مفكر الظن فأتاه به خبر فأنذرهم حتى إذا كان الليل سرج فى الشجر ناراً وعلق عليها الإداوى وفيها الماء يسمع خريرها فأمر الناس فاحتملوا فانسلوا من تحت ليلتهم وباتت بنو سعد وهم يسمعون صوتاً ويرون ناراً . فلما أصبحوا نظروا ؛ فإذا هم قد ساروا فاتبعوهم على الخيل فأدركوهم بالفروق . وهو واد بين اليمامة والبحرين فقاتلوهم حتى انهزمت بنو سعد وكان قتالهم يوماً مطرداً إلى الليل وقتل عنترة ذلك اليوم معاوية بن نزال جد الأحنف . ثم رجعوا إلى بنى ذبيان فاصطلحوا فقال عنترة يذكر الفروق » :

(البطليوسى والأصمعى)

ألا قاتل الله الطلول البواليا ... وقاتل ذكراك السنين الخواليا

وقولك للشىء الذى لا تناله ... إذا ما هو احلولى ألا ليت ذا ليا

ونحن منعنا بالفروق نساءنا ... نطرف عنها مشعلات غواشيا

حلفنا لهم والخيل تردى بنا معاً ... نزايلهم حتى تهروا العواليا (٢)

عوالى زرقاً من رماح ردينة ... هرير الكلاب يتقين الأفاعيا (٣)

(١) الفروق : أرض واسعة فيها أودية معروفة بهذا الاسم فى هذا العهد ، واقعة غرب الأحساء مسيرة ثلاثة أيام للإبل .

وذكر ابن رشيق فى كتابه « العمدة » (ج ١ ص ١٩٣) أن قيس بن زهير ، وقيل عنترة سئل كم كنتم يوم الفروق ؟ قال : مائة فارس كالذهب لم نكثر فنفشل أو نقل فنذل !

(٢) الرديان : ضرب من السير ويهر يكره .

(٣) هرير : صوت .

ألم تعلموا أنّ الأسنة أحــرزت بقيتنا لو أن للدهر باقيــا
ونحفظ عورات النساء ونتــقى عليهن أن يلقين يوماً مخازيا (١)
أبينا أبينا أن تضب لثاتــكم على مرشقات كالظباء عواطيا (٢)
وقلت لمن قد أخطر الموت نفسه ألا من لأمر حازم قد بداليا
وقلت لهم ردوا المغيرة عن هوى سوابقها وأقبلوهــا النواصيــا (٣)
وإنا نقود الخيل تحكى رؤوسها رؤوس نساء لا يجدنَ فواليــا
تعالوا إلى ما تعلمون فإنــنى أرى الدهر لاينجى من الموت ناجيا *

يوم عراعر (٤)
كتائب وكتائب

« أراد بنو عبس لما أخرجتهم حنيفة من اليمامة أرادوا أن يأتوا بنى تغلب فمروا بحى من كلب على ماء يقال له عراعر ، فطلبوا أن يسقوهم من الماء وأن يورده إبلهم وسيدهم يومئذ رجل من كلب يقال له مسعود بن مصاد فأبوا وأرادوا سلبهم فقاتلوهم فقتل مسعود وصالحوهم على أن يشربوا من الماء ويعطوهم شيئاً فانكشفوا عنهم فقال عنترة » :

(البطليوسى والأصمعى)

---

(١) أى منعنا نساءنا وأبينا أن تسيل لثاتكم من شدة الحرص وغلبة الشهوة .

(٢) هذا البيت لا يوجد فى كتاب « العقد الثمين فى الشعراء الجاهليين » .

(٣) اقبلوها النواصى : أى اجعلوا نواصى خيلكم مقابلة لنواصى خيلهم .

(*) هذه الأبيات فى رواية الأصمعى ثلاثة عشر بيتاً ، وليس فيها « ونحفظ عورات . . إلخ »

(٤) راجع « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهليين » ط غريفزولد ص ٣٠ .

عراعر : واد عظيم لبنى كلب ، فى شمال بلاد العرب ويعرف فى عهدنا باسم « وادى السرحان » شمال الجوف .

وراجع « العمدة » لابن رشيق ج ١ ص ١٩٣ .

ألا هل أتاها أن يوم عراعــر شفا سقماً لو كانت النفس تشتفى
فجئنا على عميــاء ما جمعوا لنا بأرعن لا خــل ولا متكشف
تماروا بنا إذ يمدرون حيــاضهم على ظهر مقضّ من الأمر محصف (١)
وما نذروا حتى غشينا بيوتهــم بغيبة موت مسبل الودق مزعف (٢)
فظلنا نــكر المشرفية فيهــم وخرصان لدن السمهرىّ المثقف (٣)
علالتنــا فى كل يــوم كريهة بأسيافنا والقرح لم يتقرف (٤)
أبينا فلا نعطى الســواء عدونا قياماً بأعضاد السراء المعطف (٥)
بكل هتوف عجسها رضّويــة وسهم كسير الحميرىّ المؤنف (٦)
فإن يك عــز فى قضاعة ثابت فإن لنا بالرحرحان وأسقف (٧)
كتائب شهباً فوق كل كتيبــة لواء كظل الطائر المتصرف (٨)

صَوّت المشرفى *

« لاحاه بنو عبس فى إبل أخذها من طليعة لهم اقتتلوا عليها فأرادوا أن يردوها فأبى وخرج بما له وإبله ونزل بطىء فكان بين بنى جديلة وثعل قتال عظيم ، وكان عنترة فى بنى جديلة ولم يكن لها ظفر فى ذلك اليوم فأرسلتْ بنو

(١) مدر الحوض : اصلحه بالمدر . المحصف : الحكم .
(٢) مزعف : أى لا يبقى .
(٣) الخرصان : الرماح .
(٤) لم يتقرف : لم يقشر أى أنهم لم يشهدوا حرباً إلا وشهد وا أخرى قبلها .
(٥) السواء : النصفة ، السراء : شجر تتخذ منه القسى .
(٦) العجس : مقبض القوس ، رضوية : نسبة إلى رضوى الجبل المعروف بقرب بلدة ينبع .
(٧) رحرحان : جبل قريب من عكاظ .
(٨) المتصرف : المتقلب .
هذه القصيدة تتفق مع رواية الأصمعى . راجع المخطوطة (١٢٥) نسخة دار الكتب المصرية .
(*) راجع « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهليين » طبع مدينة غريفزولد ص ٥٢ .

ثعل إلى غطفان — أن جوارنا كان أقرب وألحق وأعظم من أن يجيء رجلٌ منكم يبغى علينا ، فارتحلت غطفان إلى عنترة فأرضوه وتركوا إبله ، فقال عنترة فى ذلك » :

(الأصمعى والبطليوسى)

ألاَ يا دار عبلة بالطوىّ ... كرجع الوشم فى رسغ الهدىّ (١)
كوحى صحائف من عهد كسرى ... فأهداها لأَعجم طمطمىّ (٢)
أمن زوّ الحوادث يوم تسمو ... بنو جرم لحرب بنى عدىّ (٣)
إذا اضطربوا سمعتَ الصوتَ فيهم ... خفياً غير صوت المشرفىّ
وغير نوافذ يخرجنَ منهم ... بطعن مثل أشطان الركىّ (٤)
وقد خذلتهم ثعل بن عمرو ... سلامنيهم والجرولى *

إنا كذلك ! **

« قالها فى حرب كانت بينهم وبين جديلة طيء ، وكان بين جديلة وبين بنى شيبان حلف ، فأمدت بنو شيبان بنى جديلة فقاتل عنترة قتالاً شديداً وأصاب دماء وجراحة ولم يصب نعماً ، فقال عنترة » :

(الأصمعى والبطليوسى)

وفوارس لى قد علمتهم ... صُبر على التكرار والكلم

(١) الطوى : البئر . الوشم : أثر على ظهر الكف . الهدى : المرأة تهدى إلى زوجها .
(٢) أعجم طمطمى : لا يفصح ولا يفقه .
(٣) الزو : القدر وأيضاً التعجب . وجرم : من طيء .
(٤) الأشطان : جبال البئر والنوافد الطعنات .
(*) هذه الأبيات لا توجد فى رواية الأصمعى . راجع الديوان المخطوط بدار الكتب المصرية .
(**) راجع « العقد الثمين فى الشعراء الجاهليين » ط مدينة غريفز ولد ص ٣٩ .

يمشون والماذىّ فوقهم ... يتوقدون توقد الفحم *
كم من فتى فيهم أخى ثقة ... حر أغر كغرة الرئم (١)
ليسوا كأقوام علمتهم ... سودُ الوجوه كمعدن البرم (٢)
عجلت بنو شيبان مدتهم ... والبقع أستاها بنو لأم (٣)
كنا إذا نفر المطى بنا ... وبدا لنا أحواض ذى الرضم (٤)
نعدى فنطعن فى أنوفهم ... نختار بين القتل والغنم
إنا كذلك يا سهىّ إذا ... غدر الحليف نقود بالخطم (٥)
وبكل مرهفة لها نفذ ... بين الضلوع كطرة الفدم (٦)

فِراق !...

« أغارت طىء على بنى عبس والناس خلوف ، وعنترة فى ناحية من إبله على فرس له فأخبر فكرّ وحده واستنقذ الغنيمة من أيديهم وأصاب رهطاً ثلاثة أو أربعة ، وكان عنترة فى بنى عامر حينئذ فجلس يوماً مع شاب منهم فأسمعوه شيئاً كرهه ، وكان فى قبيلة من بنى الجريش يقال لهم بنو شكل فقال فى ذلك » : (البطليوسى والأصمعى)

ظعن الذين فراقهم أتوقع ... وجرى ببينهم الغراب الأبقع
حرق الجناح كأن لحيى رأسه ... جلمان بالأخبار هش مولع (٧)

(١) الرئم : الظبى .
(٢) البرم : قدور من الحجارة .
(٣) البقع أستاها : رماهم بالبرص فى أستاههم .
(٤) الرضم : موضع من نواحى وادى القرى وتيماء .
(٥) الخطم : الأنف وفى رواية « نمور بالخطم » .
(٦) الطرة : الحاشية ، الفدم : ضرب من البرود أحمر .
(*) هذه الأبيات رواها الأصمعى . راجع الديوان المخطوط بدار الكتب المصرية ص (١٣٤)
(٧) هش : يشير إلى سروره وولوعه بالفرقة .

فزجـــرته ألا يفـــرخ عشـــه　　أبداً ويصبـــح واحداً يتفجـــع
كمدلة عجـــزاء تلحم ناهضـــا　　فى الوكر موقعها الشظاء الأرفع [١]
إن الذين نعيت لى بفـــراقهم　　هم أسهروا ليلى التمام فأوجعوا
ومغـــيرة شعواء ذات أشـــلة　　فيهـــا الفوارس حاسر ومقنـــع
فزجرتهـــا عن نسوة من عامـــر　　أفخـــاذهن كأنهن الخـــروع [٢]
وعرفت أن منيتى إن تأتـــنى　　لا ينجنى منهـــا الفرار الأسرع
فصبرت عارفـــة لذلك حـــرة　　ترسو إذا نفسُ الجبان تطلع [٣]*

رثـــاء

قال يرثى مالك بن زهير العبسى وكان صديقاً له :

ألا يا غراب البين فى الطيران　　أعرنى جناحاً قد فقدت بنـــانى
ترى هل علمت اليوم مقتل مالك　　ومصرعه فى ذلـــة وهـــوان ؟
فإن كان حقًّا فالنجوم لفقـــده　　تغيب ويهوى بعـــده القمران
لقد كان يوما أسودَ الليل عابساً　　يخاف بلاه طارق الحـــدثان
فلله عينا من رأى مثل مـــالك　　عقيرة قوم إنْ جرى الفرسان [٤]
فليتهما لم يجريا نصف غلـــوة　　وليتهما لم يرســـلا لرهـــان [٥]

(١) العجزاء : التى بموخرها بياض أو لون مخالف ، تلحم : تطعم اللحم ، الشظاء : جبل .
(٢) شبهت بالخروع : للين شجره .
(٣) عارفة : يريد نفسه . وترسو : أى تثبت ولا تتطلع إلى الفرار (راجع كتاب « تهذيب الصحاح » . نشر محمد سرور الصبان وتحقيق أحمد عبد الغفور عطار وعبد السلام هارون ج ٣ ص ٩٧٧ وطبع دار المعارف بمصر) .
(*) عدة هذه الأبيات فى رواية الأصمعى ثمانية ، وليس فيها البيت (كمدلة عجزاء .. إلخ). راجع الديوان المخطوط (ص ١٣٠) نسخة دار الكتب المصرية .
(٤) فرسان : داحس والغبراء وقد سبق الحديث عن الحرب التى أثارتاها .
(٥) الغلوة : الغاية مقدار رمية (« تهذيب الصحاح » ص ١٠٣٩ ج ٣) .

وليتهما ماتا جميعا ببلدة   وأخطاهما قيس فلا يُرَيان(١)
لقد جلبا حينا وحربا عظيمة   تبيد سراة القوم من غطفان
وكان لدى الهيجاء يحمى ذمارها   ويطعن عند الكر كل طعان
به كنت أسطو حينما جدّت العدا   غداةَ اللقا نحوى بكل يمانى
فقد هدّ ركنى فقده ومصابه   وخلى فؤادى دائمَ الخفقان
فوّا أسفا كيف انثنى عن جواده   وما كان سيفى عنده وسنانى
رماه بسهم الموت رام مصممٌ   فياليته لمّا رماه رمانى
فسوف ترى إن كنت بعدك باقيا   وأمكننى دهر وطول زمان
وأقسم حقًّا لو بقيت لنظرة   لقرّت بها عيناك حين ترانى *

لقاء مع الأعداء **

قالها فى إغارته على بنى ضبة وتميم :

طربتَ وهاجتك الظباءُ السوارح   غداةَ غدتْ منها سنيحٌ وبارحُ
دالت بى الأهواء حتى كأنما   بزندين فى جوفى من الوجد قادح
لعمرى لقد أعذرتُ لو تعذريننى   وخشنتُ صدراً غيبه لك ناصح(٢)
أعاذل كم من يوم حرب شهدته   له منظر بادى النواجذ كالح
فلم أر حيًّا صابروا مثلَ صبرنا   ولا كافحوا مثلَ الذين نكافح
إذا شئتُ لاقانى كمى مدججٌ   على أعوجىّ بالطعان مسامح (٣)

---

(١) ويروى : كانا بدلا عن ماتا .

(*) لم ترد هذه القصيدة فى رواية الأصمعى . راجع الديوان المخطوط نسخة دار الكتب (رقم ٧٧٢٧ أدب) .

(**) راجع « العقد الثمين فى الشعراء الجاهلين » ط مدينة غريفزولد ص ٣٦ و ٣٧ .

(٢) أعذر : أبدى عذره واعتذر . وخشنت صدراً : أو غرته .

(٣) أعوجى : نسبه إلى أعوج فحل كريم تنسب الخيل الكرام إليه .

نزاحف زحفا أو نلاقى كتيبـــة تطاعننا أو يذعر السرح صائح (١)
تداعى بنـــو عبس بكل مهند حسام يزيل الهام والصف جانح (٢)
تركنا ضراراً بين عـــان مكبل وبين قتيل غاب عنه النوائح
وعمرا وحبانـــا تركنا بقفــرة تعودهمـــا فيها الضبـــاع الكوالح
يجررن هامـــاً فلقتـــه رماحنـــا تزيل منهن اللحـــى والمسايـــح *

يدٌ مكينة ! ...

قالها فى قتل قرواش وقتل عبد الله بن الصمة :

نحا فارس الشهباء والخيـــل جنح على فارس بين الأسنة مقصد (٣)
ولولا يـــد نالته منـــا لأصبحت سباع تهادى شلوهُ غير مسند (٤)
فلا تـــكفر النعمى وأثن بفضلها ولا تأمنن ما يحدث الله فى غد
فإن يك عبد الله لاقى فوارســاً يردّون خالى العارض المتوقد (٥)
فقد أمكنت منك الأسنةُ عانيـــاً فلم تجز إذ تسعى قتيلاً بمعبد *

---

(١) السرح : المال السائم .
(٢) تداعى بنو عبس : تجمعوا . جانح : أى مال بعضهم على بعض فى القتال أى قد اشتبكوا .
(*) عدة أبيات هذه القصيدة واحد وعشرون بيتاً فى رواية الأصمعى راجع الديوان المخطوط ص (١٣٥ و ١٣٦) نسخة دار الكتب المصرية .
(*) راجع « العقد الثمين فى دواوين الشعراء الجاهليين » ط مدينة غريفزوولد ص ٣٧ .
(٣) نحا عليه : أقبل ، جنح : مائلة .
(٤) الشلو : العضو من الجسد المائت .
(٥) الخال : لواء الجيش .
(*) روى الأصمعى هذه الأبيات كما هى مثبتة هنا . راجع الديوان المخطوط (ص ١٣٣) نسخة دار الكتب المصرية .

نموذج بشرى !... *

« كان عمارة بن زياد يحسد عنترة ويقول لقومه إنكم أكثرتم ذكره والله لوددت لو أن لقيته خالياً حتى أعلمكم أنه عبد فبلغ عنترة قول عمارة فقال يهجوه»
(البطليوسى والأصمعى)

أحوْلىَ تنفض استكَ مذْ رَوَيها ... لتقتلنى فها أنــذَا عمارا ؟ (١)
متى ما تلقــنى فردين ترجف ... روانف إليتيك وتستــطارَا (٢)
وسيــفى صارمٌ قبضــت عليه ... أشاجع لا تــرى فيهـا انتشارا
وسيفى كالحقيقــة وهــو كمعى ... ســلاحى لا أفلّ ولا فطارا (٣)
ستعلم أينــا للموت أدنــى ... إذا دانيت لى الأســل الحرارا (٤)
وخيل قــد دلفت لهــا بخيل ... عليها الأسد تهتصر اهتصارا (٥) *

أنا والزمــان !...

فى يوم جبلة (٦) وفيه قتل لقيط بن زرارة أبو ختنوس

أرى لى كل يــوم معْ زمانى ... عتاباً فى البعــاد وفى التــدانى
يريد مذلــتى ويدور حــولى ... بجيش النائبــات إذا رآنى

(*) راجع العقد الثمين فى الشعراء الجاهليين ط مدينة غريفزولد ص ٣٩ .
(١) المذروان : طرفا الإليتين .
(٢) الروانف : أسفل الإلية أى ترجف جزعاً .
(٣) الكمع : الضجيع . أفل : ذو فلول . وفطار : أى فيه صدوع .
(٤) الأسل : القنا . الحرار : العطاش إلى الدماء جمع حرى .
(٥) الاهتصار : الهصر وهو الكسر وجذب الشيء وإمالته .
(*) عند مقابلة هذه الأبيات برواية الأصمعى وجدت ثلاثة عشرة بيتاً راجع الديوان المخطوط (ص ١٢٥) نسخة دار الكتب المصرية .
(٦) جبلة : هضبة حمراء كبيرة لا تزال معروفة بهذا الاسم ، وتقع غرب إقليم « السر » يدعها المتجه إلى الحجاز من الرياض بعد أن يجوز منهل « خف » ويقبل على قصر « الدوادمى » شماله مسيرة يوم وبعض يوم للإبل .

كأنى قد كبرتُ وشابَ رأسى … وقلّ تجلدى ووَهىَ جنـانى
ألاَ يا دهر يومى مثل أمسى … وأعظم هيبـةً لمن التقانى
ومكروب كشفتُ الكربَ عنه … بضربة فيصل لمـا دعـانى
دعانى دعوةً والخيـلُ تجرى … فما أدرى أباسمى أمْ كنـانى
فلم أمسك بسمعى إذْ دعانى … ولـكن قد أبان له لسانى[(١)]
ففرقت المواكب عنـه قهـراً … بطعن يسبق البرقَ اليمـانى
ومـا لبيتـه إلا وسيـفى … ورمحى فى الوَغىَ فرَسا رهان
وكان إجابـتى إيـاه أنـى … عطفتُ عليـه خوّار العنان
بأسمرَ من رماح الخطّ لدْن … وابيض صارم ذكر يمـانى
وقرن قد تركتُ لدى مكر … عليه سبائبًّا كالأرجـوان
تركتُ الطيرَ عاكفةً عليه … كما تردى إلى العرس البوانى[(٢)]
وتمنعهن أن يـأكلن منـه … حياة يـد ورجـل تركضان
فما أوهى مراسُ الحرب ركنى … ولـكن ما تقادمَ من زمانى
وما دانيتُ شخصَ الموت إلاّ … كما يدنو الشجاعُ من الجبان
وقد علمتْ بنو عبس بأنى … أهشّ إذا دُعيت إلى الطعان
وأن الموت طوع يدى إذا ما … وصلتُ بنانها بالهُندُوانى
ونعم فوارس الهيجاء قـومى … إذا علقوا الأعنة بالبنـان[(٣)]
هم قتلوا لقيطاً وابن حجر … وأرْدَوا حاجباً وابنىْ أبان

---

(١) أى لم أمسك بسمعى عنه ولكنى أجبته باللسان و باليد .
(٢) البوانى : جمع بائنة وهن اللواتى يزففن العروس إلى بعلها .
(٣) من بنى تميم .

امرؤ سمح الخليقة

يا عبلُ أين من المنية مهربى | إن كان ربّى فى السماء قضاها
وكتيبة لبستها بكتيبة | شهباء باسلة يخاف رداها
خرساء ظاهرة الأداة كأنها | نارٌ يشب وقودُها بلظاها
فيها الكماةُ بنو الكماة كأنهم | والخيل تعثر فى الوغى بقناها
شهب بأيدى القابسين إذا بدت | بأكفهم بهر الظلام سناها(١)
صبرٌ أعدّوا كلّ أجرْد سابح | ونجيبة ذبلت وخف حشاها
يحملن فتياناً مداعس بالقنا | وقرا إذا ما الحرب خفّ لواها (٢)
منْ كل أروَع ما جدٍ ذى صولة | مرس إذا لحقت خصى بكلاها(٣)
وسريت فى وعث الظلام أقودُهم | حتى رأيتُ الشمس زال ضحاها
ولقيت فى قبل الهجير كتيبة | فطعنت أوّل فارس أولاها (٤)
وضربت قرنى كبشها فتجدلا | وحملت مهرى وسطها فمضاها
حتى رأيت الدهم بعدَ سوادها | حمرَ الجلود خضبن من جرحاها
يعثرن فى نقع النجيع جوافلا | ويطأنَ من حُمى الوَغى صرعاها
فرجعت محموداً برأس عظيمها | وتركتها جزراً لمن ناداها
ما استمت أنثىَ نفسَها فى موطن | حتى أوفِّ مهرها مولاها
ولما رزأت أخا حفاظ سلعةً | إلا له عندى بها مثلاها
أغشى فتاة القوم عند حليلها | وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها
وأغض طرفى إن بدت لى جارتى | حتى يوارى جارتى ماءواها

(١) بهر . . . إلخ . . . أى أذهب ضوؤها الظلام وغلبه .
(٢) المدعس : كثير الطعن .
(٣) أى إذا اشتد الجزع ولحقت خصى الجبان بكلاه .
(٤) أول فارس من مقدمتها .

إنىّ أمرؤٌ سمحُ الخليقـــة ماجـــدٌ لا أتبع النفس اللجوجَ هـــواها
ولـــئن سألتُ بذاك عبلةَ خبرت ألا أريـــد من النساء ســـواها
وأجيبهـــا إما دعت لعظيمـــة وأغيثُهـــا وأعف عمـــا ساها *

(*) عدة هذه القصيدة فى رواية الأصمعى اثنتان وعشرون بيتاً وبها بيتان لم يثبتا هنا . وليس بها البيت الأول (يا عبل . . . إلخ) ومبدوءة بالبيت (وكتيبة : إلخ) راجع الديوان المخطوط (١٣٦ و١٣٧) نسخة دار الكتب المصرية .

ماورد في بعض الكتب من شعر عنترة

خيال عبلة

أشاقك من عبل الخيال المبرج ... فقلبك فيه لاعجٌ يتوهج
كأن فؤادى يومَ قمتُ مودّعاً ... عبيلة منى هاربٌ يتبعج (١)
ألما بماء الدحرضين فكلما ... ديارَ التى فى حبها بتّ الهج (٢)
ديارٌ لذات الخدر عبلة أصبحت ... بها الأربعُ الهوجُ العواصفُ ترهج
فهل تبلغنى دارَها شدَنيةٌ ... هملعة بين القفار تهملج (٣)
تريك إذا ولت سناماً وكاهلاً ... وإن أقبلت صدراً لها يترجرج
لئن أضحت الأطلالُ منها خوالياً ... كأن لم يكن فيها من العيش مبهج
فيا طالما مازحتُ فيها عبيلةً ... وما زَحنى فيها الغزالُ المغنج
أغن مليحُ الدلّ أحورُ أكحلٌ ... أزَج نقى الخدّ أبلجُ أوْعجُ
له حاجبٌ كالنون فوقَ جفونه ... وثغرٌ كزهر الأقحوان مفلج
وردفٌ له ثِقلٌ وخصرٌ مهفهفٌ ... وخد به وردٌ وساقٌ خدَلج
وبطنٌ كطىّ السابرية لينٌ ... أقبُّ لطيف ضامر الكشح مدمج
لهوتُ بها والليل أرخى سدُوله ... إلى أن بدَا ضوءُ الصباح المبلج (٤)
أراعى نجومَ الليل وهى كأنها ... قواريرُ فيها زئبقٌ يترجرج
وتحتى منها ساعدٌ فيه دُملجٌ ... مضىء وفوقى آخرٌ فيه دُملج (٥)
وإخوان صدق صادقين صحبتهم ... على غارة من مثلها الخيل تسرج

(١) يتبعج : يتلوى .

(٢) الدحرضان اسم مورد ماء وقيل ماءان وقد سبق الحديث عن ذلك فى باب تحليل معلقة عنترة .

(٣) شدنية : ناقة . هملعة : خفيفة سريعة .

(٤) المبلج : المتضح الأبيض .

(٥) الدملج : المعضد من الحلى .

تطوف عليهم خندريس مدامة ترى حبباً من فوقها حين تمزج
وإنى لأحمى الجارَ من كل ذلة وأفرحُ بالضيفِ المقيم وأبهج
وأحمى حمى قومى على طول مدّتى إلى أن يرونى فى اللفائف أدرج

سجايا كريمة

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضبُ
ومن يكن عبد قوم لا يخالفهم إذا جفوه ويسترضى إذا عتبوا
قد كنت فيما مضى أرعى جماهمو واليوم أحمى حماهم كلما نكبوا
لله دَرّبنى عبس لقد نسلوا من الأكارم ما لم تنسل العرب
لئن يعيبوا سوادى فهوَ لى نسبٌ يوم النزال إذا ما فاتنى النسب
إن كنتَ تعلم يا نعمان أنّ يدى قصيرةٌ عنكَ فالأيام تنقلب
اليومَ تعلم يا نعمان أىّ فتىً يلقى أخاك الذى قد غره الغضب
إن الأفاعى وإنْ لانتْ ملامسها عندَ التقلب فى أنيابها العطب
فتىً يخوض غمار الحرب مبتسما وينثنى وسنانُ الرمح مختضب
إن سل صارمه سالت مضاربه وأشرق الجوّ وانشقتْ له الحُجب
والخيلُ تشهد لى أنى أكفكفها والطعنُ مثلُ شرار النار يلتهب
إذا التقيتُ الأعادى يوم معركة تركت جمعهم المغرور ينتهب
لىَ النفوسُ وللطير اللحومُ وللوحش العظامُ وللخيالة السلب
لا أبعد الله عن عينى غطارفةً إنساً إذا نزلوا جنا إذا ركبوا
أسودُ غاب ولكن لا نيوبَ لهم إلا الأسنة والهندية القضُب
تعدو بهم أعوجياتٌ مضمرة مثلُ السراحين فى أعناقها القبب (١)

(١) الأعوجيات : نسبة إلى أعوج فرس سابق كريم . السراحين جمع سرحان . وهو الذئب .

ما زلت ألقى صدورَ الخيل مندفعا بالطعن حتى يضج السرج واللبب
فالعميُ لو كان فى أجفانهم نظروا والخرسُ لو كان فى أفواههم خطبوا
والنقع يوم طراد الخيل يشهد لى والضرب والطعن والأقلام والكتب

خدين المعالى

لغير العلى منى القلا والتجنب(١) ولولا العلى ما كنت فى العيش أرغب
ملكت بسيفى فرصةً ما استفادها من الدهر مفتولُ الذراعين أغلب
لئن تلك كفى ما تطاوعُ باعهـا فلى من وراء الكف قلب مذرب (٢)
وللحلم أوقـات وللجهل مثلهـا ولكنّ أوقاتى إلى الحلم أقـرب
أصول على ابنـاء جنسى وأتقى ويعجم فىّ القائلـون وأعـرب
يرون احتمالى عفـة فـيريبهم توفر حلمى أننى لست أغضب
تجافيت عن طبـع اللئام لأننى أرى البخلَ يشنا والمكارم تطلب
وأعلم أن الجـودَ فى الناس شيمة تقوم بها الأحرارُ والطبع يغلب !

ثمن المجد ! ...

لأى حبيب يحسن الرأى والـودّ وأكثر هذا الناس ليس لهم عهد
أريـد من الأيام مالا يضرهـا فهل دافع عنى نوائبها الجهـد
ومـا هـذه الدنيا لنا بمطيعـة وليس لخلق من مداراَتها بـد
وكل قريب لى بعيـد مـودةً وكل صديق بين أضلعه حقـد
فلله قلب لا يبـل غليلـه وصال ولا يلهيه من حله عقد(٣)

(١) للشريف الرضى قريب من هذه القصدة ومطلعها واحد .
(٢) مذرب : محدد .
(٣) يريد بالحل نقض الصلات وبالعقد ضد ذلك .

يكلفنى أن أطلب العــز بالقنا — وأين العلا إن لم يساعدنى الجــد
أحب كما يهواه رمحــى وصارمى — وسابغــة زعف وسابغــة نهد [١]
وإن تظهر الأيـام كل عظيمة — فلى بين أضلاعى لها أســد ورد
ولا مال إلا ما أفــادك نيلــه — ثناء ولا مال إلا لمن له مجــد
ولا عاش إلا من يصاحب فتية — غطاريف لا يعنيهم النحس والسعد [٢]
إذا طلبوا يوما إلى الغــزو شمروا — وإن ندبوا يوماً إلى غارة جدّوا
بهاليلُ مثل الأسد فى كل موطن — كأنّ دمَ الأعداء فى فمهم شهد [٣]

ما الفخار ؟ ...

إذا قنع الفتى بذميم عيش — وكان وراء سجف كالبنات [٤]
ولم يهجم على أســد المنايا — ولم يطعن صدور الصافنات [٥]
ولم يقر الضيوف إذا أتوْه — ولم يرو السيوف من الكماة
ولم يبلغ بضرب الهـام مجداً — ولم يكُ صابراً فى النائبات
فقل للناعيات إذا نعتــه — ألا فاقصرن نــدبَ النادبات
ولا تندبن إلا ليث غاب — شجاعاً فى الحروب الثائرات
دعونى فى القتال أمت عزيزا — فموت العز خير من حياة
لعمرى ما الفخار بكسب مال — ولا يدعى الغنى من السراة
ستذكرنى المعامع كل وقت — على طول الحياة إلى الممات
فذاك الذكر يبقى ليس يفنى — مدى الأيام فى ماض وآتى

(١) السابغة من الدروع : التامة الطويلة. الزغف : اللينة الواسعة المحكمة. ونهد فيها بروز ونتوء.
(٢) غطاريف : جمع غطريف وهو السيد الشريف السخى .
(٣) بهاليل . جمع بهلول وهو السيد الجامع لكل خير .
(٤) السجف : الستر .
(٥) الصافن من الخيل : القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر وهذا من كرام الخيل .

بيت فى الثريّا !...

سكتُّ فغرّ أعدائى السكوتُ وظنونى لأهلى قد نسيتُ
وكيف أنامُ عن سادات قوم أنا فى فضل نعمتهم رُبيت
وإن دارت بهم خيل الأعادى ونادونى أجبت متى دعيت
بسيف حدّه يزجى المنـــايا ورمح صدره الحتف المميت
خلقت من الحديد أشدّ قلبا وقد بلى الحديد وما بليت
وأنى قد شربتُ دمَ الأعادى بأقحاف الرؤوس وما رويت[١]
وفى الحرب العوان ولدت طفلا ومن لبن المعامع قد سقيت
فما للرمح فى جسمى نصيب ولا للسيف فى أعضاىَ قوت
ولى بيت علا فلكَ الثريـــا تخرّ لعظم هيبته البيوت

سوق المنـــايا

إذا كشف الزمان لك القناعا ومد إليك صرف الدهر باعا
فلا تخش المنيـــة والتقيها ودافع ما استطعت لها دفاعا
ولا تختر فراشاً من حرير ولا تبك المنازل والبقاعا
وحولك نسوة ينـــدبن حزنا ويهتـــكن البراقـــع واللفاعا
يقول لك الطبيب دواكَ عندى إذا ما جسّ كفك والذراعا
ولو عرف الطبيبُ دواءَ داء يردّ الموت ما قاسى النزاعا
وفى يوم المصانع قد تركنا لنا بفعالنا خـــبرا مشاعا

---

(١) الأقحاف : جمع قحف بالكسر وهو العظم فوق الدماغ وما انفلق من الجمجمة فبان ولا يدعى قحفاً حتى يبين أو ينكسر منه شيء .

أقمنا بالذوابل سوقَ حــرب وصـــيرنا النفوس لهـــا متاعا
حصـــانى كان دلال المنايا فخاض غمارها وشرى وباعا
وسيفى كان فى الهيجا طبيباً يداوى رأس من يشكو الصداعا
أنا العبد الذى خبرت عنـــه وقد عاينتنى فـــدع السماعا
ولو أرسلت رمحى معْ جبان لكان بهيبتى يلقى السباعا
ملأت الأرض خوفاً من حسامى وخصمى لم يجد فيهـــا اتساعا
إذا الأبطال فرّت خوف بأسى ترى الأقطار باعاً أو ذراعا

عتاب وتحدّ

سلاَ القلبُ عمنْ كان يهوى ويطلبُ وأصبح لا يشكو ولا يتعذب
صحا بعد سكر وانتخى بعد ذلة وقلب الذى يهوى العلا يتقلب
إلى كم أدارى من تريد مذلتى وأبذل جهدى فى رضاها وتغضب
عبيـــلة أيام الجمال قليـــلة لهـــا دولة معلومة ثم تذهب
فلا تحسبى أنى على البعـــد نادم ولا القلب فى نار الغرام معـــذب
وقد قلت إنى قد سلوت عن الهوى ومن كان مثلى لا يقول ويكذب
هجرتك فامضى حيث شئت وجربى من الناس غيرى فاللبيب يجـــرب
لقد ذل من أمسى على ربـــع منزل ينوح على رسم الديار وينـــدب
وقد فاز منْ فى الحرب أصبحَ جائلا يطاعن قرناً والغبـــار مطنب
نديمى رعاكَ اللهُ قم غن لى على كؤوس المنايا من دم حين أشرب
ولا تسقنى كأس المدام فإنهـــا يضل بها عقل الشجاع ويذهب

بعيد الهمّ

إذا اشتغلت أهلُ البطالة بالكاس — أو اغتبقوها بـــين قس وشماس
جعلت منامى تحت ظل عجاجة — وكأس مدامى قحف جمجمة الراس
وصوت حسامى مطربى وبريقـــه — إذا اسودّ وجه الأفق بالنقع مقباس
وإن دمدمت أسد الشرى وتلاحمت — أفرقها والطعن يسبق أنفاسى
ومن قال إنى أســـود ليعيبنى — أريه بفعلى أنه أكذب الناس
فسيرى مسير الأمن يا ابنة مالك — ولا تجنحى بعد الرجاء إلى اليـــاس
فلو لاح شخص الحمام لقيتـــه — بقلب شديد البأس كالجبل الراسى

مصادر الكتاب

القرآن الكريم	
الأغانى	لأبى الفرج الأصبهانى
الأمالى	لأبى على القالى
الكامل	للمبرد
البيان والتبيين	لعمرو بن بحر الجاحظ
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
بلوغ الأرب	لمحمود شكرى الألوسى
خزانة الأدب	لعبد القادر عمر البغدادى
الكامل فى التاريخ	لابن الأثير الجزرى
جمهرة أشعار العرب	لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى
العقد الفريد	لابن عبد ربه
معجم البلدان	لياقوت الحموى
تاريخ الأمم والملوك	للطبرى
العبر وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون
لباب الآداب	لأسامة بن منقذ
الفهرست	لمحمد بن إسحاق النديم
أساس البلاغة	للزمخشرى
المؤتلف والمختلف	للآمدى
معجم الشعراء	للمرزبانى
نهاية الأرب	للنويرى
جمهرة أنساب العرب	لابن حزم

مختصر جمهرة النسب	عن نسخة مخطوطة فى الإدارة الثقافية
كشف الظنون	لحاجى خليفة
السيرة النبوية	لابن هشام
لسان العرب	لجمال الدين بن منظور
بلاد العرب	للحسن بن عبد الله الأصبهانى ـــ لغدة ـــ « مخطوط »
الباب فى الأنساب	للأشعرى
طرفة الأصحاب	لعمر بن يوسف بن رسول
الطبقات	لابن سعد
تاريخ العرب	لفيليب حتى ترجمة محمد مبروك نافع
صفة جزيرة العرب	للهمدانى
تاج العروس شرح القاموس	لمرتضى الزبيدى
القاموس	للفيروز أبادى
عيون الأثر	لابن سيد الناس
مجمع الأمثال	للميدانى
معجم ما استعجم	للبكرى
شعراء النصرانية	للأب لويس شيخو اليسوعى
الأعلام	للزركلى
مهذب الأغانى	لمحمد الخضرى
نور اليقين	لمحمد الخضرى
تاريخ الأدب العربى	لأحمد حسن الزيات
تاريخ الأدب العربى	للسباعى بيومى
التوجيه الأدبى	لطه حسين وعبد الوهاب عزام وأحمد أمين ومحمد عوض محمد

شرح المعلقات	للتبريزى
الرحلة الحجازية	للبتانونى
المحبر	لمحمد بن حبيب
الفتوّة عند العرب	لعمر الدسوقى
تهذيب الكامل	للسباعى بيومى
مجانى الأدب	للأب لويس شيخو اليسوعى
معجم قبائل العرب	لعمر رضا كحالة
مجلة اليمامة	لحمد الجاسر
ديوان عنترة	تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبى
« عنترة » مسرحية شعرية	لأحمد شوقى
المجانى الأدبية عن مجانى الأب شيخو	لفؤاد أفرام البستانى
منية النفس فى أشعار عنتر عبس	لإسكندر أغا أبيكاريوس
خطرات فى الشعر والنقد	لحسن عبد الله القرشى (تحت الطبع)
فى أصول الأدب	لأحمد حسن الزيات
الجوارى	لجبور عبد النور (العدد ٥٩ من سلسلة « اقرأ »)
الفن ومذاهبه فى الشعر العربى	لشوقى ضيف
حضارة العرب	لغوستاف لوبون ترجمة عادل زعيتر
السيرة الحلبية	لنور الدين الحلبى
أيام العرب فى الجاهلية	لمحمد أبى الفضل إبراهيم وعلى البجاوى ومحمد أحمد جاد المولى
العمدة	للحسن بن رشيق القيروانى
محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية	لمحمد الخضرى

مهد العرب	لعبد الوهاب عزام (العدد ٤٠ من سلسلة « اقرأ »)
الصحاح	للجوهرى
شرح شواهد مغنى اللبيب	للسيوطى
شرح المفضليات	للمرزوقى
نضرة الإغريض	لمظفر بن الفضل الحسينى
تهذيب الصحاح	لمحمود بن أحمد الزنجانى (نشر محمد سرور الصبان وتحقيق عبد السلام هارون وأحمد عبد الغفور عطار)
بين البحر والصحراء	لشفيق جبرى (العدد ٤٩ من سلسلة « اقرأ »)
أبو زيد الهلالى	لمحمد فهمى عبد اللطيف (العدد ٤٧ من سلسلة « اقرأ »)
صبح الأعشى	للقلقشندى
قلب جزيرة العرب	لفؤاد حمزة
تاريخ آداب اللغة العربية	لجرجى زيدان

فهرس الأعلام

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(غ)

(ن)

(هـ)

(و)

(ى)

فهرس الأمكنة

فهرس الكتاب

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٧